

عناقيد الكرز



د. طَارِق البَحْرِي

عناقيد الكرز

رِوَايَةٌ

دَارُ الْمَكْتَبِي

الطبعة الأولى

2018-1439

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزؤه
بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير
أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسري أو الاحتضان
بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق الإذنين
مكتب من دار الكتب .



دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433، فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262، فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email: almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

دار الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع



الْمَشْهَدُ الْأَوَّلُ

قِصَصُ الْخَيَالِ حَقِيقَةً

تَعْتَقِدُ الْأَمِيرَةُ الصَّغِيرَةُ أَنَّ النَّاسَ فِي دُنْيَانَا الْيَوْمَ،
كَمَا رَأَيْنَاهُمْ وَخَبَرْنَاهُمْ فِي حَيَاتِنَا، وَمِنْ خِلَالِ تَعَامُلِنَا
مَعَهُمْ وَاحْتِكَائِنَا بِهِمْ؛ لَيْسُوا جَمِيعًا - فِي الْغَالِبِ الْأَعْمِ -
سَوَاسِيَةً مُتَسَاوِينَ فِي الْفِكْرِ وَالْمَنْطِقِ وَالْعَطَاءِ وَالْعَمَلِ ..
تَرَى أَنَّهُ مِنَ الْخَطِئِ الْجَسِيمِ أَنْ نَتَوَقَّعَ الْخَيْرَ مِمَّا
لَا يَأْتِي مِنْهُ الْخَيْرُ، وَلَا يُقَالُ «مِنَ الْغَبَاءِ» وَيُكْتَفَى
بِعِبَارَةِ «مِنَ الْخَطِئِ» مِنْ أَجْلِ حُسْنِ التَّعْبِيرِ ..
وَأَيُّ تَعْبِيرٍ أَفْضَلُ مِنَ الْكَلَامِ الْمُكْتَسَبِيِّ بِحُلَّةِ زَاهِيَّةٍ
وَفِي مَضْمُونِهِ قِصَصٌ قَاسِيَةٌ؟!!

وَهُنَاكَ مَنْ يَرَى أَنَّ بَعْضَ الْبَشَرِ يَمْلِكُونَ صِفَاتِ
نَادِرَةٍ .. «جَعَلُوا مِنْ حَيَاتِهِمْ كُلِّهَا رِحْلَةً ضَوْءٍ ..

يُضَيِّثُونَ الشُّمُوعَ لِمَنْ حَوْلَهُمْ؛ أَحْيَانًا بِفِكْرَةٍ، وَأَحْيَانًا
بِجُمْلَةٍ عَابِرَةٍ، وَأَحْيَانًا بِابْتِسَامَةٍ.

أَمَّا الْإِبْتِسَامَةُ فَهِيَ بِحَدِّ ذَاتِهَا «صَدَقَةٌ».

وَهَلْ هُنَالِكَ خَيْرٌ مِنَ الْإِبْتِسَامِ، وَلَا سِيماً إِذَا كَانَتْ
الْإِبْتِسَامَةُ تَرْتِسِمُ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يُعَانِي الأَلَمَ. فَإِنَّ الأَلَمَ
مَعَ الْإِبْتِسَامِ لَا يُضَاهِيهِ جَمَالٌ وَلَا ضِيَاءٌ. وَفِي هَذَا
الْكَلَامِ حَقِيقَةٌ تُثَبِّتُهَا التَّجَارِبُ، وَليْسَ مُجَرَّدَ كَلَامٍ
فَارِغٍ، لِلتَّسْلِيَةِ أَوْ لِتَمْضِيَةِ الْوَقْتِ، أَوْ مَجْمُوعَةٍ مِنْ
التَّخَيُّلاتِ الْوَاهِمَةِ الْبَعِيدَةِ عَنِ الْوَاقِعِ الْمَحْسُوسِ..

تَقِفُ الأَمِيرَةُ عِنْدَ كُلِّ فِكْرَةٍ، وَأَمَامَ كُلِّ كَلِمَةٍ تَخْطُرُ
عَلَى بَالِهَا، فَالْحَيَاةُ بِالنُّسْبَةِ لَهَا مَجْمُوعَةٌ أَفْكَارٍ
وَحِكَايَاتٍ.. فَهِيَ لَيْسَ عِنْدَهَا الْكَثِيرُ مِنْ مَوَاقِفِ الْحَيَاةِ
وَتَجَارِبِهَا الْوَاقِعِيَّةِ.. لِأَنَّ حَيَاتَهَا تَقْتَصِرُ عَلَى هَذَا
الْمَكَانِ فَقَط. فَهِيَ لَا تَنْظُرُ إِلَى الْأَشْيَاءِ إِلَّا مِنْ خِلَالِ
نَفْسِهَا، وَمَا تُؤْمِنُ بِهِ مِنْ أَفْكَارٍ..

ومن لا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ نَفْسِهِ فلن يَعْرِفَ الحَقِيقَةَ
أبدًا، لِأَنَّ الحَقِيقَةَ لَا بُدَّ أَنْ تَأْتِيَ مِنَ الدَّاخِلِ أَوَّلًا،
وَكُلَّمَا اقْتَرَبَ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ أُضِيتُ أَمَامَهُ كَثِيرٌ مِنْ
الحَقَائِقِ الْمُبْهَمَةِ، وَتَفْتَحَتْ عَيْنَاهُ عَلَى أُمُورٍ لَا يَرَاهَا
إِلَّا مَنْ يَرَى مِنْ دَاخِلِ نَفْسِهِ إِلَى خَارِجِهَا. . فليستِ
الرُّؤْيَةُ مَحْصُورَةٌ بِالْعَيْنِ، بَلِ الرُّؤْيَةُ الحَقِيقِيَّةُ هِيَ الَّتِي
تَكُونُ مِنْ وَرَاءِ البَصْرِ لِتَصِلَ إِلَى البَصِيرَةِ.

تَقُولُ ذلك في نَفْسِهَا وَكَأَنَّهَا تَخْطُبُ فِي جَمْعٍ غَفِيرٍ
مِنَ النَّاسِ:

«لَا يَظُنُّ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّ جَمِيعَ مَا نَسْمَعُهُ فِي القِصَصِ
القَدِيمَةِ والجَدِيدَةِ، بما فِيهَا مِنْ تَفَاصِيلَ بَعِيدَةٍ عَنِ وَاقِعِ
القَارِئِ أَوْ السَّامِعِ، هِيَ أُمُورٌ تَحْدُثُ فَقَط نَتِيجَةَ أَفْكَارِ
المُؤَلِّفِ وَأَهْوَائِهِ، وَليْسَ لَهَا حِطٌّ مِنَ الحَقِيقَةِ. . وَإِنْ
كَانَ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمًا وَليْسَ كُلهُ. وَقَدْ تَكُونُ القِصَصُ
مِنَ الخَيَالِ، وَلَكِنَّهُ فِي الوَاقِعِ خَيَالُ الحَقِيقَةِ.»

أَمْرُ الْأَمِيرَةِ كُلُّهُ عَجَبٌ . . صَغِيرَةٌ بِالسِّنِّ لَكِنَّهَا
تَجَاوَزَتْ سِنَّهَا بِعَقْلِهَا . .

الْقِرَاءَاتُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي شَغَلَتْ بِهَا نَفْسَهَا مَكَّنَتْهَا مِنْ
مَعْرِفَةِ أَشْيَاءَ كَانَتْ لَا تَعْرِفُهَا لَوْلَا الْقِرَاءَةُ . .

فِعْلًا إِنَّ الْقِرَاءَةَ تَأْجُ عَلَى رُؤُوسِ الْقُرَّاءِ النَّابِهِينَ،
وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَأْجٍ عَادِيٍّ، بَلْ هِيَ تَأْجٌ مِنْ ذَهَبٍ مُرْصَعٍ
بِالْمَاسِ وَالْيَاقُوتِ . .

تَفْتَرِضُ الْأَمِيرَةُ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّا تَرَوِيهِ الرِّوَايَاتُ
وَالْقِصَصُ وَالْحِكَايَاتُ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ ثَمْرَةً نَاضِجَةً
دَانِيَةً مِنْ خِيَالِ الْكَاتِبِ الْجَامِعِ الْمُنْطَلِقِ، اعْتِقَادًا مِنْهَا
أَنَّ فِي ثَمَارِ حَبْكَيْتِهِ «الْمُدْهِشَةَ» مَا لَا يَحْدُثُ بَتَانًا فِي
الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَفِي حَيَاتِنَا الدُّنْيَا.

فَقَدْ تَكُونُ قِصَّتًا لَيْلِي (ذَاتِ الرِّدَاءِ الْأَحْمَرِ)
الْمُتَخَيَّلَتَانِ، مَعَ الذُّبِّ أَوَّلًا ثُمَّ مَعَ التَّمْسَاحِ ثَانِيًا،
وَاللَّتَانِ قَرَأْتُهُمَا مِرَارًا وَتَكَرَّرًا وَقَارَنْتُ بَيْنَهُمَا؛ وَهُمَا

بِحَقِّ، سواءَ مَعَ خَصْمِهَا الْأَوَّلِ اللَّدُّودِ فِي قِصَّةِ (ليلى
والذئب) الْقَدِيمَةِ الَّتِي يَعْرِفُهَا الْجَمِيعُ، كِبَاراً وَصِغَاراً،
وَبِكُلِّ لُغَاتِ الْعَالَمِ، أَوْ مَعَ عَدُوِّهَا الثَّانِي الْجَدِيدِ:
التَّمْسَاحُ اللَّحُوحُ، فِي قِصَّةِ (ليلى والتَّمْسَاحِ).. «هذا
مِنْ حَيْثُ الْمَبْدَأُ طَبْعاً»..

تُفَكِّرُ الْأَمِيرَةُ الصَّغِيرَةُ بِذَلِكَ عَلَى اعْتِبَارٍ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ
ذئبٌ وَلَا تَمْسَاحٌ يَتَكَلَّمَانِ.. فَالْكَلَامُ نَوْعٌ مِنْ
الْحِكْمَةِ.. وَالْحِكْمَةُ لَا يَتَمَتَّعُ بِهَا غَيْرُ الْإِنْسَانِ.

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ
وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [الآية: 269].

فَحَدِيثُ الْحَيَوَانِ لِلْإِنْسَانِ وَحَدِيثُ الْإِنْسَانِ
لِلْحَيَوَانِ أَمْرَانِ غَيْرِ مَنْطِقِيَّانِ، وَلَا يَقْبَلُهُمَا عَقْلٌ إِنْسِ
وَلَا جَانٌّ.. فَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يَتَحَقَّقْ - كَمَا نَعْلَمُ - إِلَّا مَعَ
نَبِيِّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ عليه السلام، وَفِي بَعْضِ الْقِصَصِ الَّتِي أَرَادَ
اللَّهُ أَنْ تَكُونَ مُعْجَزَةً مِنَ الْمُعْجَزَاتِ..

أَمَا أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ شَيْئًا طَبِيعِيًّا مُعْتَادًا فَهَذَا لَمْ يَحْدُثْ
 عَلَى مَدَى الدُّهُورِ وَالْأَزْمَانِ، إِلَّا فِي الْقِصَصِ
 وَالْأَحْلَامِ . . فَعَقْلُ الْإِنْسَانِ يَعْلَمُ هَذَا وَيُذَكِّرُ أَنْ مَا يُرَوَى
 فِي مِثْلِ هَذِهِ الْقِصَصِ مُجَرَّدٌ أَوْهَامٌ . . فَهَلْ شَاهَدَ أَحَدٌ ذُبًّا
 مُفْتَرِسًا يَتَكَلَّمُ وَيَكْذِبُ وَيَحْتَالُ، مِثْلَمَا كَذَبَ وَاحْتَالَ عَلَى
 الْبِنْتِ الْجَمِيلَةِ الطَّيِّبَةِ، ذَاتِ الرِّدَاءِ الْأَحْمَرِ؟؟؟؟!! وَهَلْ
 هُنَاكَ مَنْ رَأَى أَوْ سَمِعَ فِي الْوَاقِعِ تِمْسَاحًا شَرِسًا مُرْعِبًا
 يَبْتَسِمُ، ثُمَّ يُحَاوِرُ وَيُنَاوِرُ وَيُجَادِلُ حَتَّى يُفْنِعَ مُحَاوِرَهُ،
 مِثْلَمَا رَأَيْنَاهُ يَفْعَلُ فِي قِصَّةِ (لَيْلَى وَالتَّمْسَاحِ)؟!

وَمِنَ الْمُنْصِفِ الْقَوْلُ؛ أَنَّ الْأَمْرَ مَقْبُولٌ إِلَى أَبْعَدِ
 حُدُودٍ فِي الْقِصَصِ الْخَيَالِيَّةِ التَّرْفِيهِيَّةِ الْمُعْتَادَةِ . . وَلَيْسَ
 فِي ذَلِكَ مُشْكِلَةٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ
 تَمَامًا؛ فَهَذَا شَيْءٌ طَرِيفٌ وَمَطْلُوبٌ وَمَرْغُوبٌ، بَلْ
 وَيَرْتَقِي بِالْقِصَّةِ وَكَاتِبِهَا إِلَى الْقِمَّةِ إِذَا أَحْسَنَ اسْتِخْدَامَ
 أَدَوَاتِهِ، مِنْ حَرْفٍ وَكَلِمَةٍ وَحَبْكَةٍ وَعُقْدَةٍ وَحَلٍّ . . إِضَافَةً

إلى التَّفَاصِيلِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي يَعْرِفُهَا كُلُّ مَنْ رَغِبَ بِكِتَابَةِ
قِصَّةٍ مِنَ الْقِصَصِ الرَّاقِيَةِ، وَإِلَى أَيِّ صِنْفٍ انْتَمَتْ .

وَهَذَا الْكَلَامُ نَفْسُهُ يَنْدَرُجُ أَيْضاً فِي سِيَاقِ الْقِصَصِ
الْهَادِفَةِ الرَّزِينَةِ، الَّتِي تَسْعَى إِلَى تَوْصِيلِ الْفِكْرَةِ
الْمُفِيدَةِ، أَوْ غَرْسِ الْقِيَمَةِ الرَّفِيعَةِ، أَوْ تَعْزِيزِ السُّلُوكِ
الْإِجَابِيِّ، أَوْ دَحْرِ السُّلُوكِ السَّلْبِيِّ . . وَطَبَائِعُ الْبَشَرِ
أَشْكَالٌ وَأَنْوَاعٌ وَأَصْنَافٌ .

أَفْكَارٌ كَثِيرَةٌ كَانَتْ تَدُورُ فِي رَأْسِ الْأَمِيرَةِ الصَّغِيرَةِ . .
تُحَدِّثُ بِهَا نَفْسَهَا، وَمِنْ حِينٍ لِآخَرَ تُحَدِّثُ عَنْهَا الْمَرْأَةَ
الْوَحِيدَةَ الَّتِي تَعِيشُ مَعَهَا فِي قَصْرِهَا الْوَاسِعِ . .

كَانَتْ تَشْرُحُ لَهَا مَا تَقْصِدُهُ بِبَرَاءةٍ وَفِصَاحَةٍ، كَأَنَّهَا
تَخَاطَبُ جَمْعاً غَفِيراً مِنَ النَّاسِ، فَتَقُولُ:

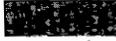
«هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنَّا يَوْمًا عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ؛ فِي
الْغَابَاتِ أَوْ فِي حَدَائِقِ الْحَيَوَانِ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ . .
ذُئْبًا غَدَارًا يَتَكَلَّمُ، أَوْ تِمْسَاحًا شَرِسًا يَتَبَسَّمُ!!!»

وَلِنَفْتَرِضُ أَنْ أَحَدًا مِنَّا ادَّعَى ذَلِكَ، فَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ
نُصَدِّقَهُ؟؟ هَكَذَا!!! وَبِكُلِّ بَسَاطَةٍ!!! وَبِتِلْفَائِيَّةٍ مُبَاشِرَةٍ
وَدُونَ إِعْمَالٍ لِلْعَقْلِ؟!!!» .

لَمْ تَكُنِ الْمُرَبِّيَّةُ (نِعْمَةُ اللَّهِ) تُقَاطِعُ الْأَمِيرَةَ فِي
أَحْلَامِهَا الصَّغِيرَةَ وَالْكَبِيرَةَ.. كَانَتْ تَتْرُكُهَا لِتَسْتَرْسِلَ
بِالْكَلَامِ.. يُسْعِدُهَا ذَلِكَ، فَكَلَامُ الْأَمِيرَةَ يُسَلِّيهَا
وَيُمْتِعُهَا، بَلْ هِيَ تُشَجِّعُهَا عَلَى أَنْ تَتَكَلَّمَ وَتَتَكَلَّمَ..

رَوْعَةُ الْكَلَامِ تَتَجَلَّى بَيْنَ الْمُحِبِّينَ بِأَجْمَلِ صُورَةٍ،
هِيَ تُحِبُّ أَمِيرَتَهَا الَّتِي رَبَّتْهَا وَرَعَتْهَا مِنْ وَلَادَتِهَا،
كَبُرَتْ عَلَى يَدَيْهَا وَنَشَأَتْ عَلَى مَحَبَّتِهَا.. لَمْ يَرْزُقْهَا اللَّهُ
بِأَوْلَادٍ وَلَا بَنَاتٍ، وَبَعْدَ أَنْ تُوفِّيَ زَوْجَهَا كَانَتْ الْأَمِيرَةُ
مَصْدَرَ سَعَادَتِهَا الْوَحِيدِ، وَعِنْدَمَا مَاتَتْ الْأَمِيرَةُ الْأُمُّ لَمْ
تَعُدْ (نِعْمَةُ اللَّهِ) مُجَرَّدَ مُرَبِّيَّةٍ.. بَلْ أَضَحَتْ أَمَّا بَدِيلَةً،
وَخَاصَّةً بَعْدَ أَنْ تَخَلَّى عَنْهَا وَالِدُهَا الْحَاكِمُ.





الْمَشْهَدُ الثَّانِي

كَلَامٌ بَعِيدٌ عَنِ الْفَهْمِ

عِنْدَمَا لَاحَظَتِ الْأَمِيرَةُ الصَّغِيرَةُ سُرُودَ مُرَبِّيتِهَا . .
هَدَأَتْ قَلِيلًا . . وَتَوَقَّفَ الْكَلَامُ فِتْرَةً . . هِيَ تَشْعُرُ بِأَنَّ
مُرَبِّيتَهَا تَسْرُدُ فِي تَفْكِيرِهَا مِنْ حِينٍ لِآخَرَ . . فِي مَرَاتٍ
تَسْأَلُهَا عَنْ سَبَبِ سُرُودِهَا فَتَقُولُ لَهَا إِنَّهَا أَصْبَحَتْ امْرَأَةً
عَجُوزًا ، وَهَذَا مِنْ طَبِيعَةٍ مِنْ يُصْبِحُ فِي سِنِّهَا . .
انْتَهَرَتْ الْأَمِيرَةُ بَعْضَ الْوَقْتِ . . أَخَذَتْ نَفْسًا عَمِيقًا
لِلْغَايَةِ . . تُرِيدُ أَنْ تَسْتَغْلِلَ هَذَا السُّرُودَ لَكِي تَلْتَقِطَ بَعْضَ
الْأَفْكَارِ الْجَدِيدَةِ . . فَهِيَ لَا تُحِبُّ أَنْ تُكْرَّرَ كَلِمَاتِهَا ، بَلِ
تُرِيدُ الْإِبْتِكَارَ دَائِمًا حَتَّى تُدْهِشَ مُرَبِّيتَهَا بِمَا تَقُولُ ،
فَتُشْعِرُهَا بِرَجَاحَةِ عَقْلِهَا وَحُسْنِ تَفْكِيرِهَا وَاتِّسَاعِ ثِقَافَتِهَا . .
لَمْ تَتَوَقَّفِ الْأَمِيرَةُ الصَّغِيرَةُ وَقْتًا طَوِيلًا عَنِ

الْكَلَامِ . . فَمَا أَنْ مَضَتْ فَتْرَةٌ وَجِيزَةٌ مِنَ الصَّمْتِ
وَالْتَأْمُلِ حَتَّى عَادَتْ تَتَحَدَّثُ بِتَلْقَائِيَّةٍ، وَكَأَنَّهَا تُجِيبُ
نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا عَلَى تِلْكَ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي طَرَحَتْهَا دُونَ أَنْ
تَتَنَظَّرَ إِجَابَةً، فَهِيَ لَمْ تَطْرَحْ تَسْأُولَاتِهَا طَلَبًا لِجَوَابٍ . .

ثُمَّ عَادَتْ تُحَدِّثُ مُرَبِّيتَهَا مُجَدِّدًا، كَأَنَّهَا تُخَاطِبُ
جَمْعًا غَفِيرًا كَمَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ:

«هذا الأمرُ مُسْتَحِيلٌ بِكُلِّ تَأْكِيدٍ، بَلْ سَوْفَ نَقُولُ
فُورًا وَدُونَ تَرَدُّدٍ: إِنَّ مَنْ يَدَّعِي ذَلِكَ فَهُوَ مَجْنُونٌ أَوْ
كَذَّابٌ . . فَلَا يُوجَدُ فِي الْوَاقِعِ حَيَوَانٌ يَتَبَسَّمُ كَتَبَسُّمِ
الْأَدَمِيِّ، أَوْ يَتَكَلَّمُ مِثْلَهُ، بِاسْتِثْنَاءِ الْبَبْغَاوَاتِ الَّتِي تُحِبُّ
الْكَلَامَ وَالثَّرْتَرَةَ بِلا وَعْيٍ وَلَا إِدْرَاكٍ لِمَا تَقُولُ، وَكَلَامِهَا
فِي الْوَاقِعِ بِلا فَهْمٍ .

وَرَعْمَ أَنْ الْبَبْغَاوَاتِ تَتَكَلَّمُ مِنْ حَيْثُ الشَّكْلِ، فَإِنَّا
لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَصِفَهَا بِأَنَّهَا حَيَوَانٌ نَاطِقٌ . . لِأَنَّ النَاطِقَ

هُوَ الْعَاقِلُ . . . فَالْعِلْمُ لَمْ يُثْبِتْ أَنَّ لِلْحَيَوَانَاتِ عَقْلاً إِلَّا
بِحُدُودٍ مَا تَحْتَاجُهُ . . .

فَهِيَ تُرَدَّدُ فَقَطْ مَا تَسْمَعُ، دُونَ دِرَايَةٍ أَوْ تَفْكِيرٍ
وَتَرْجِيحٍ أَوْ إِعْمَالِ عَقْلِ. فَهَلْ تُدْرِكُ الْبَبْغَاءُ مَعْنَى
الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَحْكِيهَا وَتُرَدِّدُهَا؟! الْكَلَامُ لِمُجَرَّدِ الْكَلَامِ
لَا يُحَقِّقُ غَايَةً وَلَا يُجِدِّي نَفْعاً.

وَمَهْمَا حَاوَلْنَا بِالتَّكْرَارِ وَالِإِضْرَارِ وَالْمُثَابَرَةِ الْمُرْهَقَةَ
فَالْبَبْغَاءُ لَنْ تَفْقَهَ مَا تَقُولُ، وَلَنْ تُرَدِّدَ سِوَى مَا نَعَلَّمَهَا
إِيَّاهُ مِنْ بَضْعِ كَلِمَاتٍ مَحْدُودَةٍ لَا غَيْرَ، وَبِشَكْلِ مُجَرَّدِ
عَنِ الْفَهْمِ . . . لِأَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ لَنْ تُدْرِكُ وَلَنْ تَسْتَوْعِبَ
مَا نَقُولُ، وَلَنْ تُمَيِّزَ مَا بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى وَمَا بَيْنَ
الصَّوَابِ وَالْخَطَأِ . . . فَقَدْ تَقُولُ لَهَا حَسَنًا فَتُرَدِّدُهُ وَقَدْ
تَقُولُ لَهَا سَيِّئًا فَتُعِيدُهُ . . . وَقَدْ تَسْتُمُّ وَقَدْ تَمْدَحُ . . .

وَكَانَتْ الْأَمِيرَةُ قَرَأَتْ يَوْمًا فِي الْأَسَاطِيرِ الْقَدِيمَةِ أَنَّ
الْبَبْغَاءَ كَانَ فِي الْمَاضِي يَتَكَلَّمُ مِثْلَ الْإِنْسَانِ، وَتَذَكَّرُ أَنَّهُ

فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ عَاشَ بَبْغَاءَ فِي قَصْرِ أَحَدِ الْمُلُوكِ ،
وَكَانَ الْمَلِكُ حَاكِمًا ظَالِمًا ، وَمِنْ شِدَّةِ تَعَطُّرِ سِهْ ظَنَّ أَنَّ
فِي مَقْدُورِهِ أَنْ يُغَيِّرَ مَا فِي الطَّبِيعَةِ ، وَأَنَّهُ يَكْفِي أَنْ يَقُولَ
أَيَّ شَيْءٍ حَتَّى يُصْبِحَ حَقِيقَةً وَاقِعَةً .

الْتَفَتَ الْمَلِكُ يَوْمًا إِلَى مَنْ حَوْلَهُ وَقَالَ : السَّمْسُ
الْيَوْمَ ظَهَرَتْ مِنَ الْغَرْبِ وَغَابَتْ فِي الشَّرْقِ .

فَقَالَ جُلَسَاءُ الْمَلِكِ : فِعْلًا ، ظَهَرَتْ السَّمْسُ الْيَوْمَ
فِي الْغَرْبِ وَغَابَتْ مِنَ الشَّرْقِ .

أَمَّا الْبَبْغَاءُ فَقَدْ ظَلَّ صَامِتًا .

وَقَالَ الْمَلِكُ : صَارَ مَاءُ الْبَحْرِ حُلُوعًا بَعْدَ أَمْطَارِ
أَمْسِ الْغَزِيرَةِ .

فَقَالَ الْجُلَسَاءُ : نَعَمْ ، نَحْنُ شَرَبْنَا مِنْهُ الْيَوْمَ فَكَانَ
أَحْلَى مِنْ مَاءِ الْيَنَابِيعِ .

أَمَّا الْبَبْغَاءُ فَقَدْ ظَلَّ صَامِتًا .

وَقَالَ الْمَلِكُ: الْقَسْوَةُ عَلَى الشَّعْبِ تَنْشُرُ الْأَمَانَ
وَالظَّمَأَيْنَةَ فِي الْبِلَادِ.

فَوَافَقَ جُلَسَاءَ الْمَلِكِ عَلَى مَا قَالَ ..

أَمَّا الْبَبْغَاءُ فَقَدْ ظَلَّ صَامِتًا ..

لَا حَظَّ الْمَلِكُ صَمَتَ الْبَبْغَاءِ فَاسْتَعْرَبَ سُلوَكَهُ
وَسَأَلَهُ قَائِلًا: مَا رَأَيْكَ أَيُّهَا الظَّائِرُ؟

فَقَالَ الْبَبْغَاءُ: يَا مَوْلَايَ! الشَّمْسُ تَطْلُعُ مِنَ الشَّرْقِ
وَتَغِيْبُ فِي الْغَرْبِ، وَالْأَمْطَارُ لَا تُحَلِّي مَاءَ الْبَحْرِ، أَمَّا
الْقَسْوَةُ وَالْبَطْشُ فَيُولِدَانِ عِنْدَ النَّاسِ الْخُنُوعَ وَالْخَوْفَ.

فَتَارَ جُلَسَاءُ الْمَلِكِ عَلَى الظَّائِرِ الْحَكِيمِ، وَاحْمَرَّتْ
عُيُونُهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ، وَوَصَفَوْهُ بِالْعُقُوقِ،
وَصَاحُوا: الْعِقَابَ .. الْعِقَابَ .. لِلظَّائِرِ الْعَاقِّ ..
الْعِقَابَ .. الْعِقَابَ .. لِلظَّائِرِ الْعَاقِّ.

وَعَبَّرَتْ حُمَى الْغَضَبِ إِلَى الْمَلِكِ، فَأَمَرَ عَلَى
الْفُورِ بِقَطْعِ لِسَانِ الظَّائِرِ ..

وَتَقُولُ الْأُسْطُورَةُ إِنَّهُ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ عَجَزَ الْبِبْغَاءُ
عَنِ الْكَلَامِ، وَلَمْ يَعُدْ قَادِرًا إِلَّا عَلَى تَرْدِيدِ الْكَلِمَاتِ
الَّتِي تُقَالُ أَمَامَهُ .

وَبَعِيدًا عَنِ أُسْطُورَةِ الْبِبْغَاءِ؛ وَبِالْعُودَةِ إِلَى مَا قَرَأْتَهُ
الْأَمِيرَةَ فِيمَا سَبَقَ؛ فَإِنَّ وِراءَ الدُّبِّ وَالتَّمْسَاحِ فِي
الْقِصَّتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ آفَاءً: «حَقِيقَةً» وَاحِدَةً مُرَّةً، لَا مِراءَ
فِيهَا وَلَا جِدَالَ . . فَقَدْ يَكُونُ بَعْضُ النَّاسِ عَلَى هَيْئَةِ
الْبَشْرِ الَّذِينَ نَعْرِفُهُمْ مِنْ حَيْثُ الشَّكْلُ الْخَارِجِيُّ فَقَطْ،
لَكِنْ لَيْسَ مِنْ حَيْثُ الطَّبْعُ وَالْمُضْمُونُ الْبَشْرِيُّ الصَّافِي
الَّذِي يُوَلَّدُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ كَمَا نَعْلَمُ يُوَلَّدُ
عَلَى الْفِطْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الصَّافِيَّةِ، قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى وَحْشٍ
كَاسِرٍ مِنْ وَحُوشِ الدُّنْيَا، إِذَا لَمْ يَحْرِصْ عَلَى الْحِفَافِظِ
عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا فَيَخْسِرَ وَيَنْدَمُ
حِينَ لَا يَنْفَعُ النَّدْمُ . .

كَحَالِ قِصَّةِ (بُونزِي) التَّغْلِبِ الْجُوعَانِ، الَّذِي ظَنَّ

نَفْسُهُ بَارِعاً بِالنَّصَبِ وَالِإِحْتِيَالِ، مِثْلُ بُونَزِي الرَّجُلِ
الشَّهِيرِ وَالنَّصَابِ الْكَبِيرِ، لَكِنَّهُ فِي النِّهَائَةِ يَفْضَلُ مِثْلَهُ . .

أَوْ كَحَالِ الثُّعْلَبِ فِي الْقِصَّةِ الَّتِي فَضَّلَ فِيهَا
النَّصَائِحَ عَلَى الطَّعَامِ، فَظَهَرَ عَلَى هَيْئَةِ ثُعْلَبٍ سَادَجٍ
لَا يُدْرِكُ مَا يَفْعَلُ . .

وَالْأَخِيرَةُ مِنَ الْقِصَصِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي تَرَوِي حِكَايَةَ
ثُعْلَبٍ انْطَلَقَ يَبْحَثُ عَنِ طَعَامٍ حَتَّى كَادَ يَهْلِكُ مِنَ
الجوعِ والتَّعَبِ، لَكِنَّهُ لَمَحَ عُصْفُوراً يَلْتَقِطُ الحَبَّ عَلَى
الأَرْضِ فَانْقَضَّ عَلَيْهِ. فَقَالَ العُصْفُورُ الصَّغِيرُ: أَنَا صَغِيرٌ
قَلِيلُ اللَّحْمِ، أَطْلِقْ سَرَاحِي وَسَأُسَدِّي إِلَيْكَ ثَلَاثَ
نَصَائِحَ نَافِعَةٍ؛ الأُولَى وَأَنَا فِي يَدِكَ، وَالثَّانِيَّةُ وَأَنَا فَوْقَ
الشَّجَرَةِ، وَالثَّلَاثَةُ وَأَنَا طَائِرٌ فِي الهَوَاءِ.

فَقَالَ الثُّعْلَبُ: حَسَنَ، هَاتِ الأُولَى.

فَقَالَ العُصْفُورُ: لَا تَتَدَمَّ عَلَى مَا فَوَّتَّ مِنْ أَمْرِكَ.

ثُمَّ طَارَ العُصْفُورُ النَّجِيبُ مُحَلِّقاً بِسَعَادَةٍ بَالِغَةٍ، ثُمَّ

حَطَّ قَرِيباً عَلَى غُضْنِ أَخْضَرَ رَفِيعٍ فِي وَسْطِ الشَّجَرَةِ
فَوْقَ الثَّعْلَبِ تَمَاماً . .

فَقَالَ الثَّعْلَبُ: حَسناً . . وما النَّصِيحَةُ الثَّانِيَةُ؟

قَالَ: لَا تُصَدِّقْ كُلَّ مَا تَرَى وَتَسْمَعُ وَيُقَالُ لَكَ .

ثُمَّ طَارَ مُحَلَّقاً يَدُورُ فِي حَلْقَةٍ مُسْتَدِيرَةٍ فَوْقَ الشَّجَرَةِ،
كَأَنَّهُ يُرِيدُ إِعَاظَةَ النَّاطِرِ إِلَيْهِ، وَلَمَّا حَلَّقَ فِي الْهَوَاءِ بَعِيداً
حَيْثُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُدْرِكَهُ حِيلُ الثَّعَالِبِ وَمَهَارَتَهَا فِي
الصَّيْدِ . . قَالَ لِلثَّعْلَبِ: أَيُّهَا الْمُسْكِينُ . . لَوْ التَّهَمْتَنِي
لَأَشْبَعَكَ لَحْمِي وَرَوَاكَ دَمِي . . أَنْتَ ثَعْلَبٌ أَحْمَقُ .

عِنْدَهَا فَهَمَّ الثَّعْلَبُ أَنْ حِيلَةَ الْعِصْفُورِ غَلَبَتْ حِيلَتَهُ،
فَنَدِمَ نَدِماً بِالِغَا عَلَى فَوَاتِ الْفُرْصَةِ وَحَزِنَ حُزْناً شَدِيداً،
ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الْعِصْفُورِ، وَقَالَ: وَأَيْنَ النَّصِيحَةُ الثَّلَاثَةُ
الَّتِي وَعَدْتَنِي بِهَا؟

فَقَالَ الْعِصْفُورُ: تَعَلَّمْ أَنْ تَنْتَفِعَ مِنْ نَصَائِحِي .

ثُمَّ غَابَ عَنِ نَظَرِ الثَّعْلَبِ .

فَانْطَلَقَ الثَّعْلَبُ يَبْحَثُ عَنْ طَعَامٍ لَهُ مِنْ جَدِيدٍ، فَمَرَّ
 فِي طَرِيقِهِ بِلَوْحَةٍ كُتِبَ عَلَيْهَا: اخْذِرِ الْوُقُوعَ فِي الْبِئْرِ!
 فَابْتَسَمَ وَقَالَ: لَنْ أَصْدُقَ كُلَّ مَا أَرَى وَأَسْمَعُ وَيُقَالُ.
 ثُمَّ عَبَرَ فَسَقَطَ فِي الْبِئْرِ حَتَّى قَضَى جَوْعاً وَنَدَمًا.

وَمِنْ قِصَصِ الثَّعَالِبِ الَّتِي قَرَأْتُهَا الْأَمِيرَةُ يَوْمًا
 وَأَعْجِبَتْ بِهَا إِعْجَابًا بَالِغًا قِصَّةُ شَهِيرَةٌ مِنْ حِكَايَاتِ
 (كَلِيلَةَ وَدِمَّةَ)؛ تَقُولُ الْحِكَايَةُ أَنَّ ثَعْلَبًا أَتَى أَجْمَةً، وَهِيَ
 الشَّجَرُ الْكَثِيرُ الْمُلتَفُّ، فَسَمِعَ صَوْتًا عَظِيمًا، فَتَوَجَّهَ
 نَحْوَهُ فَوَجَدَهُ طَبْلًا ضَخْمًا مُعَلَّقًا عَلَى غُصْنِ شَجَرَةٍ،
 وَكَانَتْ الْأَغْصَانُ تَضْرِبُهُ مَعَ حَرَكَةِ الرِّيحِ. . ظَنَّ مَتَوَهِّمًا
 أَنَّ الطَّبْلَ ضَخْمٌ مِنْ كَثْرَةِ الشَّحْمِ وَاللَّحْمِ، وَاکْتَشَفَ
 بَعْدَ أَنْ بَدَلَ جَهْدًا حَتَّى شَقَّهُ؛ أَنَّ الطَّبْلَ أَجَوْفٌ لَا شَيْءَ
 فِيهِ. . فَقَالَ: «لَا أَذْرِي لَعَلَّ أَفْشَلَ الْأَشْيَاءِ أَجْهَرُهَا
 صَوْتًا وَأَعْظَمُهَا جُبَّةً».

وَكَانَتْ الْأَمِيرَةُ قَرَأَتْ قَبْلَ مَدَّةٍ قَصِيرَةٍ قِصَّةَ (بُونزِي)،

وهي رواية قصيرة أَحْضَرَهَا لَهَا وَالِدُهَا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ،
 حَصَلَ عَلَيْهَا مِنْ دَارِ لِكُتُبِ زَارَهَا خِلَالَ إِحْدَى سَفَرَاتِهِ،
 وَتَرَوِي (بونزي) قِصَّةَ ثَعْلَبٍ يَظُنُّ نَفْسَهُ ذَكِيًّا . . . فِيمَا
 تَسْتَلْهُمُ الْقِصَّةَ فِي بَعْضِ صَفَحَاتِهَا مِنَ التُّرَاثِ الْفَصِيحِ
 وَالشَّعْبِيِّ مَعَانِي جَدِيدَةٍ، لِتُقَدِّمَ وَجِبَةً دَسَمَةً مُشَوِّقَةً
 وَمَسَلِيَّةً، تَغُصُّ بِالْمَعْلُومَاتِ الْوَفِيرَةِ، عَنْ بَعْضِ
 الْحَيَوَانَاتِ مِثْلِ الثَّعْلَبِ وَالذَّبِّ وَابْنِ آوَى وَالْبُومَةِ .

وَعَلِمَتِ الْأَمِيرَةُ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مَعْلُومَاتٍ
 جَدِيدَةً كَثِيرَةً، مِنْهَا أَنَّ أُنثَى الثَّعْلَبِ تُدْعَى ثَعْلَبَةً، وَصِغَارُهُ
 هَجَارِسَ وَضَغَارِيسَ وَجِرَاءً، وَصَوْتُهُ ضُبَاحٌ، وَبَيْتُهُ
 وَجَارٌ، وَمِنْ صِفَاتِهِ الْمَكْرَ وَالِدَّهَاءَ وَالْحِيلَةَ، يَسَاعِدُهُ فِي
 ذَلِكَ حَاسَّةُ الشَّمِّ الْقَوِيَّةِ وَالسَّمْعِ الشَّدِيدِ. وَهُوَ يَصْطَادُ
 بِمُفْرَدِهِ، بَيْنَمَا الذَّنَابُ تُصْطَادُ فَرَائِسُهَا جَمَاعَاتٍ، كَمَا أَنَّ
 الْبُومَةَ تَرَى لَيْلًا، وَتَصْطَادُ فَرَائِسُهَا لَيْلًا أَيْضًا .

وَتَضَمَّنَتِ الْقِصَّةُ أَمْثَالَ كَثِيرَةً، أَحَبَّبَتْهَا وَكَتَبَتْهَا فِي

كراسيةً تَحْتَفِظُ فِيهَا بِأَجْمَلِ الْجُمَلِ وَالْفَقْرَاتِ الَّتِي
تَقْرَوُهَا . . وَمِنْهَا : «أَذْهَى مِنْ سِلَاحِ الثُّغْلَبِ»، و«الطَّمَعُ
ضَرٌّ وَمَا نَفَعَ»، و«كَالْخُرُوفِ أَيْنَمَا اتَّكَأَ اتَّكَأَ عَلَى
صُوفٍ»، و«لَا يَضُرُّ الشَّاةُ سَلْخَهَا بَعْدَ ذَبْحِهَا»، و«كُلُّ
شَاةٍ بِرِجْلِهَا سَتْنَاطٌ»، و«هُوَ فِي ذَيْلِ ذَائِلٍ»؛ أَي يَعِيشُ
فِي هَوَانٍ شَدِيدٍ، و«هُوَ طَوِيلُ الذَّيْلِ»؛ أَي يَعِيشُ فِي
غِنَى ظَاهِرٍ.

أَمَّا اسْمُ بُونَزِي فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ اسْمًا
لِلثُّغَالِبِ، لَكِنَّ الْقِصَّةَ اسْتَعَارَتْ هَذَا الْاسْمَ وَرَبَطَتْهُ
بِحَيْطِ شَفَافٍ لَهُ عِلَاقَةٌ بِشَخْصِيَّةِ «بُونَزِي» الْحَقِيقِيَّةِ،
وَهُوَ أَحَدُ رِجَالِ الْمَافِيَا الْإِيطَالِيَّةِ الَّذِي قَامَ بَعْدَهُ
عَمَلِيَّاتِ نَصْبٍ وَاحْتِيَالٍ فِي إِيطَالِيَا وَأَمْرِيكَا وَكِنْدَا
وغيرها، وَجَمَعَ ثَرْوَةً كَبِيرَةً، وَتَعَرَّضَ لِلسَّجْنِ لِسَنَوَاتٍ
أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، إِلَّا أَنْ ذُكِّأَهُ وَخِدَاعَهُ لَمْ يُسْعِفَاهُ كَثِيرًا،
فَمَاتَ فَقِيرًا ذَلِيلًا.

والتَّعْلَبُ «بونزي» هُوَ الْآخِرُ نَجَحَ فِي عِدَّةِ مَكَائِدَ،
وكان طَعَامُهُ فِيهَا وَفِيْرًا، لَكِنَّهُ فِي النِّهَائَةِ فَشَلَ فَشَلًّا
ذَرِيْعًا، وَلَوْ أَنَّهُ أَكَلَ مِنْ أَوْراقِ الشَّجَرِ لَمَّا نَدَمَ عَلَى
أَفْعَالِهِ السَّابِقَةِ وَهَلَكَ جُوعًا.





الْمَشْهُدُ الثَّالِثُ

هَيْئَةُ بَشَرٍ وَأَحْلَامٌ ذَنْبٌ

كَانَتْ الْأَمِيرَةُ تَقْرَأُ كُلَّ شَيْءٍ يَصِلُ إِلَيْهَا.. ثُمَّ تَغْرُقُ
فِي الْأَفْكَارِ الْعَمِيقَةِ..

الْقِرَاءَةُ تَفْتَحُ بَاباً وَاسِعاً أَمَامَ فِضَاءِ التَّفَكِيرِ،
وَلَا يُمَكِّنُ لِسَجْنٍ أَنْ يَصُدَّ الْعَقْلَ عَنِ الْبَحْثِ، وَلَا لِقَيْدٍ
أَنْ يَمْنَعَ الْأَحْلَامَ عَنِ التَّحْلِيلِ فِي عَوَالِمِ الْجَمَالِ
وَالْإِبْدَاعِ وَالْكَمَالِ..

وَفِي الْوَاقِعِ - كَمَا تُحَدِّثُ الْأَمِيرَةُ نَفْسَهَا دَائِماً - قَدْ
يُضْمَرُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ عَلَى هَيْئَةِ بَشَرٍ، شَكْلاً
لَا مَضْمُوناً، «أَخْلَاقٌ» وَحْشٍ فَاسِدٍ لِكِنَّةٍ جَمِيلٍ الْمُنْظَرِ
أَنِيقِ الْهِنْدَامِ، أَوْ رُبَّمَا يُخْفِي «أَحْلَامٌ» ذَنْبٍ مُرَاوِغٍ،
أَوْ «إِحْسَاسٌ» تَمْسَاحٍ جَائِعٍ نَهْمٍ لَا يَشْبَعُ..

أَوْ رَبَّمَا يَحْمِلُونَ صِفَاتٍ أُخْرَى لَا تُحْصَى مِنْ
الصِّفَاتِ الْبِهَيْمِيَّةِ الشَّرْسَةِ، عَلَى نَقِيضِ الصِّفَاتِ
الْإِنْسَانِيَّةِ السَّمْحَةِ.

أَلَا يَقُولُونَ: «يَرَوْغُ مِنْكَ كَمَا يَرَوْغُ الثَّعْلَبُ» ..
وَكُلُّ النَّاسِ تَعْرِفُ مَا يَتَحَلَّى بِهِ الثَّعْلَبُ الْمَكَارُ مِنْ
شُهْرَةٍ كَبِيرَةٍ بِالْإِحْتِيَالِ وَالنَّصَبِ وَالْمُرَاوَعَةِ ..

وَيَقُولُونَ أَيْضاً: «جَلْدُهُ تَمْسَحُ» .. بِمَعْنَى أَنَّهُ وَقِحٌ،
وَأَنَّهُ لَمْ يَعُدْ يَتَأَثَّرُ بِشَيْءٍ مِمَّا يُمَكِّنُ أَنْ يَتْتَقِدَهُ بِهِ النَّاسُ،
فَشُبِّهَ بِالتَّمْسَاحِ لِأَنَّ جَلْدَهُ سَمِيكٌ جِداً وَصَلْبٌ جِداً،
بِمَا يُمَكِّنُهُ مِنْ تَحْمُلِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْقَسْوَةِ وَالضَّرْبِ
الشَّدِيدِ، وَحَتَّى لَوْ كَانَ الضَّرْبُ بِالْحَدِيدِ .. كَمَا أَنَّهُ
صَلْبُ الْإِرَادَةِ عَنِيدٌ، لَا يُهَادِنُ وَلَا يَسْتَسَلِّمُ بِبَسَاطَةٍ
وَسُهُولَةٍ، فَضْلاً عَنِ كَوْنِهِ لَا يَعْتَرِفُ بِالْهَزِيمَةِ مُطْلَقاً،
وَإِنْ هَزَمَ فَعَلَاً وَفَرَّ هَرَباً مِنْ مِيَادِينِ النَّزَالِ!!

وَحَقِيقَةُ التَّمْسَاحِ الْمَقْصُودَةُ فِي الْقِصَّةِ وَجُوهَرُهَا

وَاقِعٌ مَأْلُوفٌ مَلْمُوسٌ مُحَسَّوسٌ، وَمِثْلُهُ مِثْلُ الذَّبِّ
الشَّرْسِ وَالتَّغَلَّبِ الْمَكَارِ، وَإِنْ اِخْتَلَفَتِ الْمَقَائِيسُ
وَالصِّفَاتُ، فَإِنَّ لَمْ يَكُنِ الذَّبُّ ذُبًّا بَرِيًّا بِأَنْيَابٍ حَادَّةٍ
وَمُخَالَبَ جَارِحَةٍ، فَقَدْ يَكُونُ ذُبًّا بِلِبَاسِ بَشَرٍ.

وَقَدِيمًا قَالُوا فِي الْأَمْثَالِ: «إِذَا لَمْ تَكُنْ ذُبًّا أَكَلْتِكَ
الذَّبَابُ»؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْمَجْتَمَعَ قَدْ يُشْبَهُ فِي بَعْضِ
الْحَالَاتِ الْوَاقِعِيَّةِ طَرَفًا مِنْ شَرِيعَةِ الْغَابِ، حَيْثُ إِنَّ
الْبَقَاءَ وَالصُّمُودَ يَكُونُ فِي الْغَالِبِ لِلْأَقْوَى وَلِلْأَشْرَسِ . .
أَمَّا الْهَيْنُ اللَّيْنُ الضَّعِيفُ فَمَصِيرُهُ - رُبَّمَا - أَنْ يَكُونَ
فَرِيسَةً لِغَيْرِهِ الْأَقْوَى وَالْأَدْهَى مِنْهُ، وَهَذَا مَا يَعْتَقِدُهُ
بَعْضُ النَّاسِ، وَرُبَّمَا أَغْلِبُهُمْ، نَظْرًا لِمَا يَرُونَهُ مِنْ
مَوَاقِفَ مُشَابِهَةٍ تَحْدُثُ أَمَامَهُمْ.

وَالْحَيَاةُ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْمَقُولَةِ لَيْسَ فِيهَا سِوَى
خِيَارَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا:

«إِمَّا أَنْ تَكُونَ ذُبًّا بَيْنَ ذُنَابِ الْحَيَاةِ، أَوْ أَنْ تَكُونَ

فَرِيْسَةٌ لِلذَّنَابِ، فَلَا مَكَانَ لِلضُّعْفَاءِ فِي الْأَرْضِ،
وَلَا رَحْمَةً وَلَا قَانُونَ عِنْدَ الْمَخْلُوقَاتِ ذَاتِ الْمَخَالِبِ
وَالْأَنْيَابِ غَيْرِ قَانُونَِ الْغَابِ».

لكن هُنَاكَ فِتْنَةٌ أُخْرَى مِنَ النَّاسِ - وَهِيَ قَلِيلَةٌ كَمَا تَقُولُ
الْأَمِيرَةُ وَتَسْتَنْجِحُ مِنْ خِلَالِ قِرَاءَتِهَا الْمُتَوَّعَةَ وَالْمُتَوَاصِلَةَ -
تَرْفُضُ هَذِهِ الْمَقُولَةَ، وَمَا يَتَّبَعُهَا مِنْ رَأْيٍ، جُمْلَةً
وَتَفْصِيلاً . . . وَتَعْتَقِدُ أَنَّ فِي الذَّنَابِ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ . . . غَيْرِ
أَنَّ الْأَغْلَبِيَّةَ تُقْرَبُ بِهَا وَتَعْتَرِفُ . . . وَفِيهَا يَكْتُبُ الْكُتَّابُ
وَالشُّعْرَاءُ وَالْأَدَبَاءُ وَغَيْرُهُمْ كَثِيرًا مِنَ الشُّوَاهِدِ . . .

وَهُنَاكَ مَنْ يَرَى أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ تَقْتُلُ الْمُرُوءَةَ
وَالشَّرْفَ، وَتَنْزَعُ الْمَحَبَّةَ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَتَجْعَلُهُمْ
جَمِيعًا أَوْ أَكْثَرَهُمْ كَائِنَاتٍ فَتَاكَةً مُفْتَرِسَةً .

وَيَقُولُونَ أَنَّهُ بَدَلًا مِنَ التَّفْكِيرِ بِالْإِفْتِرَاسِ الْمُتَبَادَلِ؛
يَجِبُ التَّفْكِيرُ بِالتَّرَاحِمِ وَالتَّسَامُحِ وَاحْتِرَامِ الْقَوَانِينِ . . .
لَكِنَّ الْوَاقِعَ يَشْهَدُ أَنَّ الْأَمْثَالَ وَالْأَقْوَالَ أَوْضَعُفُ مِنْ

أَنْ تَفْتِكَ هِيَ وَحَدَهَا بِالْمُرُوءَةِ وَالشَّرَفِ، كَمَا أَنَّهَا
لَا تَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى نَزْعِ الْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ مِنْ قُلُوبِ
النَّاسِ. وَهُنَاكَ مِنْ قَالَ:

مَرَرْتُ عَلَى الْمُرُوءَةِ وَهِيَ تَبْكِي
فَقُلْتُ عَلَامَ تَنْتَجِبُ الْفِتَاةُ
فَقَالَتْ: كَيْفَ لَا أَبْكِي وَأَهْلِي

جَمِيعاً دُونَ خَلْقِ اللَّهِ مَا تَوَا
وَلَعَلَّ الْقُلُوبَ هِيَ الَّتِي تَقْسُو وَتَتَحَجَّرُ، فَتَمْتَنِعُ
الْمَحَبَّةُ عَنِ السُّكْنَى بِدَاخِلِهَا. . فَمَنْ يَتَجَرَّأُ عَلَى أَنْ
يَكُونَ ذَيْباً غَرِيراً أَوْ تِمْسَاحاً شَرِيراً؛ لَا يَحْتَاجُ عَلَى
الرَّاجِحِ لِأَقْوَالٍ وَأَمْثَالٍ يَسْتَشْهَدُ بِهَا، بَلْ هِيَ فِي الْوَاقِعِ
مَنْ تَسْتَشْهَدُ بِهِ وَتُشِيرُ إِلَيْهِ. .

أَمَّا الْفِطْنُ النَّبِيَّةُ فَهُوَ مَنْ يُجَنَّبُ نَفْسَهُ الْمَزَالِقَ
وَالْمَهَالِكَ، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يُمَيِّزَ مَا بَيْنَ الْحَقِيقَةِ
وَالْحَيَالِ. . وَيُدْرِكُ الْفَرْقَ مَا بَيْنَ الْوَاقِعِ وَالْأَحْلَامِ. .

ومثل هذا يَنْطَبِقُ تَمَاماً عَلَى «الطَّيْبَةِ» الَّتِي اشْتَهَرَ بِهَا
حَارِسُ الْغَابَةِ فِي قِصَّتِي لَيْلَى الْجَمِيلَةِ الْبَرِيَّةِ وَخَصَمِيهَا
الذُّئْبَ وَالتَّمْسَاحَ، وَالتِّي قَدْ تَكُونُ طَبْعاً مَوْرُوثاً.

وَلِكُلِّ شَيْءٍ ضِدُّهُ، كَمَا تُؤْمِنُ الْأَمِيرَةُ بِذَلِكَ
تَمَاماً. . فَقَدْ تَكُونُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةً فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
وَتُعْطِي مَعْنِيَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ، وَقَدْ تُقَالُ كَلِمَةٌ وَيَكُونُ فِي
ظَاهِرِهَا مَدْحٌ وَفِي بَاطِنِهَا دَمٌّ. . وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ قَدْ
تَكُونُ «الطَّيْبَةُ» خِدَاعاً وَتَمْوِيهاً. . وَكَمَا أَنَّ الْوَجُوهَ
تَخْتَلِفُ وَتَتَشَابَهُ فِي حُسْنِهَا وَفُجْحِهَا؛ فَإِنَّ الْقُلُوبَ
وَالنُّفُوسَ هِيَ أَيْضاً تَخْتَلِفُ وَتَتَشَابَهُ.

فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ ضِدَّهُ، وَلِكُلِّ صُورَةٍ
حَسَنَةٍ مَا يُقَابِلُهَا مِنْ قُبْحٍ وَدَمَامَةٍ.

وَقَرَأَتِ الْأَمِيرَةُ يَوْماً قَوْلَ الْمَاضِيْنَ فِيمَا سَبَقَ مِنْ
أَزْمَنَةِ خَالِيَةِ: «الضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضُّدِّ».

كَمَا قَرَأَتْ قَوْلَهُمْ أَيْضاً: «بِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ» . .

فَقَدْ يَكُونُ الْأَبُّ طَيِّبًا حَنُونًا لَطِيفًا خَلُوقًا، مُحِبًّا لِكُلِّ
 مَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَفْرَادِ أُسْرَتِهِ وَكُلِّ مَنْ يَعْرِفُهُ مِنْ أَبْنَاءِ الْحَيِّ
 وَالْمُنْطِقَةِ وَزَمَلَاءِ الْعَمَلِ، ثُمَّ يَأْتِي الْأَبْنَاءُ، وَاحِدٌ مِنْهُمْ
 أَوْ أَكْثَرُ، وَيَكُونُونَ إِمَّا مَتَنَافِرِينَ مَتَضَادِّينَ، أَوْ أَعْدَاءَ
 مِتَبَاغِضِينَ، عَلَى النَّقِيضِ تَمَامًا مِمَّا يَجَسِّدُهُ الْأَبُّ مِنْ
 صِفَاتِ الرَّجُولَةِ وَالْجَلَالِ وَالنَّبَاهَةِ وَالْكَمَالِ، فَيُحْسَبُونَ
 مِنَ الْأَشْرَارِ لَا مِنَ الْأَخْيَارِ الْأَبْرَارِ..

أَوْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ؛ فَقَدْ يَكُونُ الْأَبُّ
 ظَالِمًا شَرِيرًا، لَكِنَّ الْأَبْنَاءَ يَأْتُونَ وَفِي قُلُوبِهِمْ عُسَارَةٌ
 بِيضَاءَ نَاصِعَةٍ بَرِاقَةٍ، يَحْمِلُونَ عَلَى أَكْتَاْفِهِمْ مَشَاعِلَ
 الْحُرِّيَّةِ وَالْحَقِّ وَالْأَخْلَاقِ الرَّاقِيَّةِ.

وَرُبَّمَا تَكُونُ الْأُمُّ صَالِحَةً وَالْأَبْنَاءُ عَكْسَهَا تَمَامًا..
 وَقَدْ يَخْتَلِفُ الْأَخُّ عَنِ أُخْتِهِ وَأَخِيهِ..

وَفِي أَحْيَايِنَ كَثِيرَةٍ يَتَفَوَّقُ الْإِبْنُ عَلَى أَبِيهِ فِي
 الْحَسَنِ وَالرُّقِيِّ وَالْعِلْمِ وَالْأَخْلَاقِ.. وَالْأَبُّ مِنْ جَانِبِهِ

لا يَحْزَنُ، بل يَفْرَحُ بِهَذَا التَّفَوْقِ فَرِحًا بَالِغَ التَّعْقِيدِ، بل
أَكْثَرَ مِمَّا يَفْرَحُ بِالْإِنْتِصَارِ جَنْدِي مَحَارِبِ مَغْوَارِ فِي
سَاحَاتِ الْوَعَى وَالنَّزَالِ، بَعْدَ جَلَاءِ غِبَارِ الْمَعْرَكَةِ.

وَلَا يَتَوَقَّفُ الْأَمْرُ عَلَى نِطَاقِ الْأَسْرَةِ فَقَطْ، فِي
زَمَانٍ مَحَدَّدٍ وَمَكَانٍ مَعِينٍ، بل الْفِكْرَةُ تَتَعَدَّى ذَلِكَ
بِكَثِيرٍ، وَتَبْلُغُ مَدَاهَا حَتَّى تَسْرِيَ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ فِي كُلِّ
زَمَانٍ وَمَكَانٍ. . . وَلَيْسَ زَمَانٌ مَا مِثْلَ زَمَانٍ آخَرَ،
وَلَا إِنْسَانٌ مَا مِثْلَ إِنْسَانٍ آخَرَ!!!

وَلَيْسَ فِي هَذَا الْكَلَامِ إِبْدَاعٌ مَبْتَكَّرٌ جَدِيدٌ لَمْ يَسْبِقْ إِلَى
مَعْرِفَتِهِ الْأَوَائِلُ. . . لَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ حَمْلِهِ وَقَوْلِهِ مِنْ حِينٍ
لِآخَرَ. . . لَعَلَّهُ ذِكْرِي، وَالذُّكْرَى تَنْفَعُ مَنْ يُرِيدُ الْإِنْفَاعَ. . .
أَمَّا مَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا؛ فَلَا تَنْفَعُ مَعَهُ الزَّلَازِلُ الْمُزْلِزَةُ،
وَلَا الْبَرَائِكِينَ الْمُتَفَجِّرَةُ، وَلَا الصَّوَاعِقُ الْمُزْمَجِرَةُ.

وَكَمَا أَنَّهُ لَا تُوجَدُ فِي الْكَوْنِ بَضْمَةٌ إِصْبَعِ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ
تَتَطَابَقُ مَعَ بَضْمَةِ إِصْبَعِ إِنْسَانٍ آخَرَ، إِذْ أَوْجَدَهَا اللَّهُ ﷻ

فُروقاَ بَيْنَ البَشَرِ، فَإِنَّهُ لَا مَفَرَّ مِنْ فُرُوقِ خَلْقِيَّةٍ - بِالْفَتْحِ -
وخلقية - بالضم -، هِيَ موجودة حَقًّا، لَكِنْ لَيْسَ بِالْغَضَبِ
وَالجَبْرِ وَالْإِكْرَاهِ؛ بَلْ بِاخْتِيَارِ الْإِنْسَانِ وَرِضَاهُ..

وَفِي كُلِّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ البَشَرِ تَبَايُنٌ وَتَقَارُبٌ،
تَجَانُسٌ وَتَنَافُرٌ، تَعَارَفٌ وَتَنَافُرٌ، تَأَلَّفٌ وَاخْتِلَافٌ..

حَتَّى الْيَدِ الْوَاحِدَةِ تَخْتَلِفُ بَصِمَاتُ أَصَابِعِهَا، مِنْ
الإصْبَعِ الصَّغِيرِ، وَهُوَ الْخَنَصِرُ، إِلَى الإصْبَعِ الْكَبِيرِ،
وَهُوَ الإِبْهَامُ.

لَكِنْ وَبِالنَّتِيجَةِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ وَإِنْ كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ
تَحْدِيدَ طَرِيقَةِ خَلْقِهِ وَمَا سَيَكُونُ مَصِيرُهُ وَمُسْتَقْبَلُهُ وَمَوْعِدُهُ
وَمَكَانُ وَفَاتِهِ.. كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ لُقْمَانَ:
﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الآية: 34]. فَإِنَّهُ - أَيُّ الْإِنْسَانِ - هُوَ
الْوَحِيدُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحَدِّدَ طَرِيقَهُ وَخِيَارَاتِهِ الْأَخْلَاقِيَّةَ

وَالْإِنْسَانِيَّةَ، مَهْمَا كَانَتِ الصُّعَابُ وَالتَّحْدِيَّاتُ، وَلَوْ لَا أَنَّ
الِاخْتِيَارَ وَالتَّفْرِيقَ مَا بَيَّنَّ الْحَسَنَ وَالْقَبِيحَ بِيَدِ الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ؛
لَمَا كَانَتْ هُنَاكَ جَنَّةٌ وَلَا كَانَتْ نَارٌ.

وَبِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ كُلِّ مَا يُحِيطُ بِالْإِنْسَانِ الَّذِي مَنَحَهُ
اللَّهُ الْعَقْلَ وَالتَّفَكِيرَ، مِنْ مَقَادِيرَ، فَإِنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ
الْعَاجِزَ عَنِ فَهْمِ كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ، قَدْ لَا يَجِدُ تَفْسِيرًا
وَتَبْرِيرًا لَهَا، بِاسْتِثْنَاءِ أَنَّهَا تَحْدُثُ بِقُدْرَةِ اللَّهِ الْأَعْلَمِ
بِمَصَالِحِ الْبَشَرِ أَكْثَرَ مِنْهُمْ، فَتُدْهِشُهُ أُمُورٌ وَمَصَائِبُ
وَحَوَادِثُ سَلْبِيَّةٌ، أَوْ عَطَاءَاتٌ إيجابيةٌ تُصَادِفُهُ وَتَأْتِيهِ
عَفْوًا مِنْ دُونِ إِرَادَةٍ مِنْهُ . .

فَهِيَ وَإِنْ كَانَتْ تَجْرِي فِي الْغَالِبِ عَلَى نَقِيضِ
مَا يُرِيدُهُ الْإِنْسَانُ، أَوْ عَلَى هَوَى مَا يَرْعُبُ بِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ
تَعَالَى هُوَ الْأَعْلَمُ بِمَا سَيَكُونُ عَلَيْهِ أَمْرُ الْإِنْسَانِ دُونَ أَنْ
تَغِيْبَ عَنْهُ الْأَحْدَاثُ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ يَرَى الْأُمُورَ كَصَفْحَةٍ
وَاحِدَةٍ لَا زَمْنَ فِيهَا وَلَا حَدَثَ يَسْبِقُ حَدْثًا، فَهُوَ يَرَاهَا



بصورةٍ تَحْتَلِفُ تماماً عَمَّا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ مِنْ أَحْدَاثٍ
متسلسلةٍ متدرّجةٍ، أو مفاجئةٍ مباغتةٍ، وَيَعْلَمُ مُسْبِقاً
مَا الَّذِي سَيَخْتَارُهُ الْإِنْسَانُ دُونَ أَنْ يَتَدَخَّلَ فِي إِرَادَتِهِ،
وَدُونَ أَنْ يَفْرَضَ عَلَيْهِ خِيَارَاتٍ مَعِيْنَةً . .

فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَجْبِرُ الْإِنْسَانَ عَلَى فِعْلِ أَمْرٍ
لَا يُرِيدُهُ . . فَهُوَ حُرٌّ بِالْمُطْلَقِ . .

أَمَّا إِذَا كَانَ يَرْزُحُ تَحْتَ خِيَارَاتٍ إِنْسَانِيَّةٍ إِجْبَارِيَّةٍ
تَفْرَضُ عَلَيْهِ بِالْقُوَّةِ، مِنْ جَانِبِ حَاكِمٍ ظَالِمٍ مَثَلًا، فَلَا
يَقُومُ الْإِنْسَانُ سَاعَتَهَا بِالْعَمَلِ السَّيِّئِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ
مَخِيْرًا بَلْ مُجْبَرًا، إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَفْرًّا مِنْ هَذَا
الْحَاكِمِ الظَّالِمِ .

وَاللَّهُ تَعَالَى يَتْرُكُ لِلْإِنْسَانِ مَسَاحَةً وَاسِعَةً مِنْ
الِاخْتِيَارِ، بَلْ يَتْرُكُ لَهُ فِي الْحَالَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ وَدُونَ
تَدَخُّلِ الْبَشَرِ الْاِخْتِيَارَ الْكَامِلَ، فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ
وَالتَّصَرُّفَاتِ وَالْمَعْتَقَدَاتِ . . بَعِيدًا عَمَّا قَدْ يَجْرِي مِنْ

أُمُورٌ لَا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ عَلَيْهَا سُلْطَانٌ، أَوْ الَّتِي تَقَعُ مِنْ
حِينَ لِآخِرٍ لِلِاخْتِبَارِ أَوْ التَّمْحِيصِ أَوْ التَّنْقِيَةِ.

وَالصَّائِغُ يَفْعَلُ مَعَ الذَّهَبِ فِعْلًا مَدْهَشًا عِنْدَمَا
يَعْرِضُهُ لِلنَّارِ، فَيَتَمَيَّزُ الذَّهَبُ النَّقِيُّ عَنِ غَيْرِهِ مِنْ
الْمَعَادِنِ، وَيَخْلُصُهُ مِمَّا عُلِقَ فِيهِ مِنَ الشَّوَابِ
وَالعَوَالِقِ، وَيَعْمَلُ عَلَى صَوْغِهِ بِشَكْلِ جَدِيدٍ، بِأَبْهَى
حُلَّةٍ وَأَجْمَلِ صُورَةٍ.

وَالْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ لَا يَقُولُ هَذَا قَدْرِي فِي الْحَيَاةِ
وَذَاكَ نَصِيبِي ثُمَّ يَسْتَسَلِّمُ، وَيَتَعَذَّرُ بِزَعْمِهِ: «إِنَّهَا نَفْسِي
الْأَمَّارَةُ الَّتِي تَأْمُرُنِي بِالسُّوءِ»..

وَالْأَمِيرَةُ الصَّغِيرَةُ تَأْبَى أَنْ تَرَى الْإِنْسَانَ مُسْتَسَلِّمًا
أَمَامَ مَا يَصَادِفُهُ فِي الْحَيَاةِ مِنْ مِصَاعِبَ وَرَغَابَاتٍ،
وَخَاصَّةً أَهْوَاءِ النَّفْسِ الشَّرِيرَةِ، وَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْأَلَ هَذِهِ
النَّفْسَ الَّتِي فِي دَاخِلِهِ مَجْمُوعَةً أَسْئَلَةٍ لَا يَتَنَازَلُ عَنْهَا:

لِمَاذَا تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ؟؟؟

ولِمَاذَا لم تَكُنْ أَمَّارَةً بِالْحَسَنِ، أو على الأقلِّ
لتَكُنْ النَّفْسَ اللّوامةَ!!؟؟!

بل بِالْأخرى عَلَيْهِ أَنْ يَسْأَلَ قَلْبَهُ وَعَقْلَهُ وَبِصَوْتِ
جَهوريِّ، وَإِرَادَةِ صلبةٍ قويةٍ: أين أنا؟؟؟!!!

أين عُنفواني وقراري الحرُّ المستقلُّ؟؟ - كَمَا يَحُلُو
لِلْبَعْضِ أَنْ يَقُولَ - وَلِمَاذَا لا تَكُونُ نَفْسِي أَمَّارَةً بِالْخَيْرِ؟

بل لِمَاذَا أَسْتَمِعُ إِلَى هَذِهِ النَّفْسِ الشَّرِّيرةِ وَأُنْفِذُ
ما تَأْمُرُنِي بِهِ مِنْ خَطايا وَمَعاصي؟

لِمَاذَا أَطَاوعُهَا وَأُنْفِذُ رَغباتِها ولا أَقِفُ أَمامَها
رافِعاً هامَتِي بِكُلِّ ثِقَةٍ، صائِحاً في وَجْهِها، رافِضاً
أوامِرَها، عِوضاً عَنِ الإنصَاتِ إِلَيْها، والإِذعانِ لَها،
والانصياعِ - غِصباً - لِكُلِّ أو بَعْضِ ما تَأْمُرُ بِهِ مِنْ شَرِّ
وتَنهَى عَنهُ مِنْ خَيْرٍ؟

أَلَمْ يَكُنِ الأجدى بِمَنْ وافَقَها على ما تُريدُهُ،

وَبِمَنْ اِغْتَادَ عَلَى مُمَارَسَةِ الْخَطَا وَثَابَرَ عَلَيْهِ - حَسَبَ
 تَعْلِيمَاتِهَا - أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَيْهَا وَيُثْبِتَهَا عَنْ أَعْمَالِهَا؟
 وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْأَسْئَلَةُ الَّتِي تَطْرُقُهَا الْأَمِيرَةُ
 الصَّغِيرَةُ، وَغَيْرُهَا مِنَ الْأَسْئَلَةِ الْمُشَابِهَةِ، جُزْءًا مِمَّا
 يَجِبُ أَنْ يَسْأَلَهُ لِنَفْسِهِ كُلُّ ذِي رَأْيٍ سَدِيدٍ وَعَقْلٍ
 لَيِّبٍ . .





الْمَشْهُدُ الرَّابِعُ

أَمِيرَةُ الْحِكَايَاتِ وَالْفَرَاشَاتِ

كثيرةٌ هي القصصُ والحِكَايَاتُ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ
تصديقُهَا بِسُهُولَةٍ . .

وحتى مَنْ يَرَاهَا حَقِيقَةً عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ قَدْ يَظُنُّ
نَفْسَهُ فِي بَعْضِ الْوَقَائِعِ الْمُدْهِشَةِ أَنَّهُ يَحْلُمُ . .

وَرُبَّمَا رَأَى الْإِنْسَانَ أَحْدَاثًا فَيُخْفِيهَا وَلَا يُخْبِرُ بِهَا
أَحَدًا ، وَقَدْ يُخْبِرُ بِأَحْدَاثٍ مِنْ نَسَجِ خِيَالِ الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ . .

وَمَعَ ذَلِكَ تَبَقَّى الْقِصَصُ الْمَحْكِيَةُ الْجَمِيلَةَ رَاسِخَةً
فِي ذَاكِرَةِ النَّاسِ كَأَنَّهَا مَنْقُوشَةٌ عَلَى صَخْرٍ ، يَرُوبِهَا
الْكِبَارُ لِلصَّغَارِ ، وَتَتَنَاقَلُهَا الْأُمَمُ أَجْيَالًا وَرَاءَ أَجْيَالٍ . .
بِلا كَلَلٍ وَلَا مَلَلٍ .

وَرُبَّمَا تَكُونُ مَعْظَمُ الْقِصَصِ الضَّارِبَةِ فِي الْقَدَمِ ،

أَوْ الْمَرُوبَةِ مِنْ زَمَنٍ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ، أَدْنَى إِلَى الْخَيَالِ
مِنْهَا إِلَى الْوَاقِعِ، لَكِنَّ التَّجَارِبَ الَّتِي نَحْيَاهَا كُلَّ يَوْمٍ
وَنَرُوبِهَا لِلْآخِرِينَ، قَدْ تَدَهَّشْنَا أحيانًا بِوَقَائِعِ مَلْمُوسَةٍ
كَانَتْ بِالْأَمْسِ خَيَالًا . . أَوْ وَهَمًا مِنَ الْأَوْهَامِ .

وَلَطَّالَمَا سَمِعَ النَّاسُ وَفِي كُلِّ الْعَصُورِ عَنِ أُمُورٍ
غَرِيبَةٍ، قَدْ لَا يَصَدِّقُهَا عَقْلٌ عَاقِلٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَحَتَّى
لَوْ رَأَاهَا الْبَعْضُ بِالْعَيْنِ الْمُجَرَّدَةِ. وَقَدْ تَكُونُ مِنَ
الْأَحْدَاثِ الْمَدَهْشَةِ لِلْغَايَةِ وَالتِّي لَا تَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ
بَشَرٍ، فَلَا يَتَوَقَّعُ أَحَدٌ حَدُوثَهَا، أَوْ قَدْ تَكُونُ عِبَارَةً عَنِ
وَقَائِعِ عَجِيبَةٍ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَنْسَجَهَا غَيْرُ مَخِيلَةٍ وَاسِعَةٍ،
وَنَفْسٍ غَارِقَةٍ فِي الْأَحْلَامِ الْبَعِيدَةِ الْمَسْتَحِيلَةِ . .

وَفِي أَحْيَانٍ عَدِيدَةٍ نَسْمَعُ عَنِ قِصَصِ حَدَثَاتٍ فِي
التَّارِيخِ نَظْمًا مِنْ فَرَطٍ غَرَابَتِهَا أَنَّهَا تَكَادُ تَكُونُ أُسْطُورَةً
مِنَ الْأَسَاطِيرِ، أَوْ أَنَّ أَصْحَابَهَا خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ الْبَشَرِ،
لَمَّا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنْ صَبْرٍ وَضَرَاوَةٍ وَقُدْرَةٍ عَلَى مَغَالِبَةِ
الْأَحْدَاثِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي تَصَادِفُهُمْ . .

لكن تِلْكَ الْقِصَصِ بِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ مَا تَشِيرُهُ مِنْ
 اسْتِغْرَابٍ؛ فَإِنَّهَا تَظَلُّ مُرْتَبِطَةً بِالْوَاقِعِ مُثِيرَةً لِحِدَالِ
 لَا يَنْتَهِي ..

وَمُقَابِلِ كُلِّ ذَلِكَ؛ تَبْقَى قِصَصُ الطُّفُولَةِ هِيَ الْأَعْلَى
 وَالْأَجْمَلُ ..

وَهَلْ هُنَالِكَ أَنْقَى مِنْ قِصَصِ الطُّفُولَةِ السَّاحِرَةِ؟!
 تِلْكَ الْحِكَايَاتُ الْبَاسِمَةُ الَّتِي يَحْكِيهَا الْأَجْدَادُ
 وَالْجَدَاتُ لِلْأَحْفَادِ، أَوِ الَّتِي يَرَوِيهَا الْآبَاءُ وَالْأُمَّهَاتُ
 لِلْأَبْنَاءِ وَالْبَنَاتِ .. فَتَبْقَى فِي الْقُلُوبِ قَبْلَ الذَّاكِرَةِ.

أَحْلَامُ الْقِصَصِ طَيْرٌ بِلا جَنَاحٍ، لَا يَنْتَهِي مِنْ
 التَّحْلِيْقِ خَلْفَ النُّجُومِ، وَلَا يَتَوَقَّفُ عَنِ السَّبَاحَةِ فِي
 أَعْمَاقِ الْفِضَاءِ، بَلْ تَنْمُو قُوَّتُهُ وَتَزْدَادُ فَرِحَتُهُ كُلَّمَا حَلَّقَ
 أَكْثَرَ وَجَدَّفَ أَكْثَرَ، وَتَشْتَدُّ عَزِيمَتُهُ لِلتَّحْلِيْقِ وَالرَّافِعِ
 مَعَ مُضِيِّ الْحَيَاةِ قُدَمَا نَحْوَ الْأَمَامِ.

وَالْحَيَاةُ أَوْقَاتٌ تَمُرُّ مُسْرِعَةً كَلِمَحٍ بِالْبَصْرِ، كُلَّمَا مَرَّ

يَوْمٌ تَبَعْتُهُ أَيَّامٌ بِلاَ تَمَهُّلٍ وَبِلاَ صَبْرٍ أَوْ اِنتِظَارٍ . . كَأَنَّهَا
 رِيحٌ خَاطِفَةٌ عَاصِفَةٌ، أَوْ قَاطِرَةٌ عَابِرَةٌ . . وَالأَرْضُ تَدُورُ
 وَتَدُورُ . . وَلا تَتَوَقَّفُ عَنِ الدُّورَانِ . . وَكَيْفَ لَهَا أَنْ
 تَتَوَقَّفَ عَمَّا هِيَ بِهِ مَأْمُورَةٌ . . تَقُومُ بِعَمَلِهَا رَاضِيَةً
 مَطْمَئِنَّةً عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ؛ بِدَقَّةٍ وَإِتْقَانٍ وَتَفَانٍ . . وَبِالرَّغْمِ
 مِنْ كُلِّ الجُهِدِ وَالتَّعَبِ الدَّائِمِينَ المُسْتَمِرِّينَ؛ فَهِيَ
 لا تَكْلُ وَلا تَمَلُّ، وَلا تَصَابُ بِالأُوهَنِ وَلا بِالأَغْيَانِ .

وَالحِكَايَاتُ تَبْقَى مِلْحَ الطُفُولَةِ بَلْ مِلْحَ الحَيَاةِ
 كُلِّهَا . . فِلا الصِّغَارُ وَلا الكِبَارُ يَتَخَلَّوْنَ عَنِ الحِكَايَاتِ
 وَالقِصَصِ الجَمِيلَةِ مَهْمَا كَانَتِ المُغْرِيَاتُ الجَدِيدَةُ . .
 وَكَمْ يَسْعُدُ الأَطْفَالَ الَّذِينَ يَواظِبُونَ عَلَى قِرَاءَةِ القِصَصِ
 وَسَمَاعِهَا . . لِأَنَّ القِصَّةَ تَبْقَى فِي الخَيَالِ وَتَنمِّيهِ،
 وَتَجْعَلُهُ مَحَلِّقًا حَوْلَ العَالِمِ . . وَخَاصَّةً قِصَصِ الطُفُولَةِ
 الوَاقِعِيَّةِ الَّتِي تَحْفَرُ فِي الذَّاكِرَةِ عَميقاً .

وَأَجْمَلُ القِصَصِ عَشَقاً . . تِلْكَ الَّتِي تُولَدُ مِنْ رَحْمِ

الوَاقِعِ . .

وَهُنَاكَ مِنْ يَوْمِنُ بَأَنَّ وِرَاءَ الْوَاقِعِ شَيْئًا أَبْعَدُ مِنْ
الْحَقِيقَةِ وَأَوْسَعُ مِنَ الْخَيَالِ . . وَأَنَّ وِرَاءَ كُلِّ خَيَالٍ طَرْفًا
مِنَ الْوَاقِعِ .

هِيَ أَشْيَاءٌ لَا تَسْقُطُ مَعَ الْمَطْرِ، وَلَا تَنْبَعُ مَعَ الْمَاءِ،
وَلَا تَتَمَرُّ مَعَ الزَّهْرِ، وَلَا تَنْبِتُ مَعَ الْعَشْبِ . . أَشْيَاءٌ
فَوْقَ الْعَقْلِ أَوْ التَّوَهُّمِ، وَفَوْقَ الرُّؤْيِ وَالْأَحْلَامِ . . وَمَعَ
ذَلِكَ يَظَلُّ النَّاسُ يَسْعَوْنَ جَاهِدِينَ لِاقْتِنَاصِ الْأَمَلِ
وَالْحَيَاةِ مِنْ وِرَاءِ الْوَاقِعِ . . فَيَقُولُونَ: مَا أَضِيقُ الْعَيْشَ
لَوْلَا فَسْحَةُ الْأَمَلِ .

وَكَانَ الْأَمَلُ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَمِيرَةِ لَيْسَ أَكْثَرَ مِنْ تِلْكَ
الْحَدِيقَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي لَا يَوجَدُ غَيْرَهَا مَتَنَفَّسًا وَمَتَنَزَّهًا لَهَا .
فَفِي حَدِيقَةِ الْقَصْرِ فَرَاشَاتٌ كَثِيرَةٌ، مِنْ كُلِّ الْأَلْوَانِ . .
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَمُرُّ فِيهِ عَلَى الْحَدِيقَةِ تَزُورُ فَرَاشَاتِهَا وَتَفْرَحُ
بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا، ثُمَّ تَعُودُ مُسْرِعَةً إِلَى الْقَصْرِ .
وَفِي يَوْمٍ . . قَرَّرَتْ أَنْ تَزْرَعَ فِي شُرْفَةِ غُرْفَتِهَا وَرُودًا

جميلةً، تَعْتَنِي بِهَا وَتَسْقِيهَا بِنَفْسِهَا بَعِيداً عَنِ الْحَدِيقَةِ
وَعَنِ الْبُسْتَانِيِّ .

أَخَذَتْ هَذِهِ الْوَرُودُ الْيَانِعَةَ الْمَلُونَةَ بِالْوَانِ مِنَ الْأَمْلِ
بَعْدِ أَجْمَلِ تَكْبُرٍ مَعَ الْأَيَّامِ . .

كَانَتْ تَتَمَنَّى أَنْ تَزُورَهَا الْفَرَّاشَاتُ عَلَى شُرْفَةِ
غُرْفَتِهَا كَمَا تَزُورُ حَدِيقَةَ الْقَصْرِ تَمْرُحُ وَتَلْعَبُ وَتَأْكُلُ
مَا لَدَّ لَهَا مِنَ الرَّحِيقِ اللَّذِيذِ .

كَانَتْ تَخْرُجُ إِلَى الْحَدِيقَةِ الْجَمِيلَةِ كُلَّ يَوْمٍ تَقْرِيباً
وَلِفْتَرَةٍ مَحْدُودَةٍ جَدًّا، تَكَلِّمُ الْفَرَّاشَاتِ بِكُلِّ أَحْجَامِهَا
وَأَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا الرَّائِعَةِ، وَتَدْعُوهَا لَزِيَارَةِ شُرْفَتِهَا . .
ثُمَّ تَضْحَكُ عَلَى نَفْسِهَا . . وَتَسَاءَلُ: «وَهَلْ تَفْهَمُنِي
الْفَرَّاشَاتُ؟!» . .

هِيَ تَعْلَمُ أَنَّ الْفَرَّاشَاتِ لَا تَعِي مَا تَقُولُ، فَلِكُلِّ مَنْ
الْمَخْلُوقَاتِ لُغَةٌ وَحَيَاةٌ . . إِنَّمَا كَانَتْ تُحِبُّ التَّسْلِيَةَ
وَالْتَرْفِيَةَ عَنِ نَفْسِهَا فَتَحَادِثُ الْأَشْيَاءَ مِنْ حَوْلِهَا . .

وفي صباح يوم مشرقٍ دافئٍ جميلٍ . . . تَوَجَّهَتْ
 الْأَمِيرَةُ الصَّغِيرَةُ إِلَى الشُّرْفَةِ كَعَادَتِهَا عَلَى أَمَلٍ . كَانَتْ
 سَعَادَتِهَا كَبِيرَةً عِنْدَمَا رَأَتْ فِرَاشَةً كَبِيرَةً مَلُونَةً جَمِيلَةً
 تَطِيرُ حَوْلَ وَرُودِهَا . . . تَلْتَهُمُ الرِّحِيقَ اللَّذِيذَ الشَّهِيَّ
 النَّدِيِّ، كَانَتْ تَبْدُو ضَاحِكَةً مُسْتَبْشِرَةً، وَكَأَنَّهَا تَسْمَعُ
 رِنَةَ ضَحِكَاتِهَا .

ثُمَّ رَأَتْ الْفِرَاشَةَ تَطِيرُ بِفَرَحٍ، تَحْرُكُ جَنَاحَيْهَا،
 تَرْقِصُ دُونَ تَوْقِفٍ . . . تَأْتِي عَلَى وَرْدَةٍ حَمْرَاءَ، ثُمَّ وَرْدَةٍ
 بِيضَاءَ، ثُمَّ صَفْرَاءَ . . . ثُمَّ تَعِيدُ الْكُرَّةَ كَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَ
 مِنْ كُلِّ أَصْنَافِ الْوُرُودِ . . . فَخَرَجَتْ إِلَى الشُّرْفَةِ . . .
 كَانَتْ شُرْفَةٌ وَاسِعَةٌ، فِيهَا إِنَاءٌ كَبِيرٌ مِنْ زَجَاجٍ شَفَافٍ، وَلَهُ
 فَتْحَةٌ وَاسِعَةٌ فِي أَعْلَاهُ يَصُبُّ مِنْ خِلَالِهَا الْمَاءُ . . .

فَجَاءَتْ دَخَلَتْ الْفِرَاشَةَ مِنْ هَذِهِ الْفَتْحَةِ دَاخِلَ الْإِنَاءِ . . .
 دُونَ أَنْ تَعْلَمَ مَصِيرَهَا . . . وَمَنْ يَدْرِي مَا الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ
 يَصَادَفَهُ فِي الْحَيَاةِ . . . قَدْ يَسْعَى الْإِنْسَانُ لِأَمْرٍ مَا فَيَأْتِيهِ
 شَيْءٌ مُخْتَلَفٌ تَمَامًا . . . لَكِنْ هَذَا لَا يَعْنِي أَنْ يَغْلُقَ الْإِنْسَانُ

عَيْنِيهِ وَأُذُنِيهِ وَيَفْعَلُ كَمَا فَعَلَتْ هَذِهِ الْفَرَّاشَةُ، يَدْخُلُ إِلَى مَكَانٍ مَجْهُولٍ، وَلَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَخْرُجُ مِنْهُ . .

لَمْ تَتَنظَّرِ الْأَمِيرَةُ الْجَمِيلَةُ لِحِظَةً وَاحِدَةً، وَبِسُرْعَةٍ خَاطِفَةٍ انْقَضَتْ عَلَى الْإِنَاءِ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ، وَأَغْلَقَتْ فَتْحَتَهُ بِسِدَادَةٍ كَانَتْ جَهْزَتَهَا لِهَذِهِ الْغَايَةِ . . كَانَتْ تُظَنُّ أَنَّهَا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ سَوْفَ تَحْتَفِظُ بِالْفَرَّاشَةِ الْمَسْكِينَةِ فِي شَرَفَتِهَا لِكُلِّ الْأَوْقَاتِ، وَبِذَلِكَ تَرَاهَا كُلَّمَا رَغِبَتْ بِرُؤْيَيْهَا .

تَأَمَّلَتِ الْأَمِيرَةُ الْفَرَّاشَةَ وَهِيَ تَحَاوِلُ الْخُرُوجَ مِنَ الْإِنَاءِ دُونَ فَائِدَةٍ . . صَارَتْ تَحْرِكُ جَنَاحَيْهَا بِاضْطِرَابٍ وَتَطِيرُ فِي كُلِّ الْأَتِّجَاهَاتِ بِلَا انْتِظَامٍ . . لَكِنَّهَا كَانَتْ تَصْطَدِمُ بِالزُّجَاجِ الَّذِي يَحِيطُ بِهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . .

وَبَعْدَ فِتْرَةٍ مِنَ الْقَلْقِ وَالِاضْطِرَابِ، وَبَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَتْ الْفَرَّاشَةُ أَنَّهُ لَا مَفْرَجَ مِنْ سَجْنِهَا الزُّجَاجِيِّ . . اسْتَسَلِمَتْ لَوَاقِعِهَا، وَالتَّصَقَّتْ بِجَانِبٍ مِنَ الزُّجَاجِ تَسْأَلُ اللَّهَ الْفَرَجَ . .



عَادَتِ الْأَمِيرَةُ الْجَمِيلَةُ إِلَى غُرْفَتِهَا، وَانْشَغَلَتْ
بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ مِثْلَ عَادَتِهَا كُلِّ يَوْمٍ، وَمَضَى وَقْتُ
طَوِيلٌ، لَكِنَّهَا كَانَتْ تُفَكِّرُ مِنْ حِينٍ لِآخَرَ بِفِرَاشَتِهَا
السَّجِينَةِ..

كُتِبَتْ عَلَى أَوْرَاقِهَا:

«لَقَدْ أَصْبَحَ عِنْدِي بَسْتَانٌ وَرُودٌ.. وَفِيهِ فِرَاشَةٌ
مَلُونَةٌ»..

صَارَتِ الْفِرَاشَةُ مَوْضِعًا جَدِيدًا لِتَكْتُبَ عَنْهُ
الْقِصَصَ.. عَادَتِ إِلَى الشُّرْفَةِ مَرَّةً أُخْرَى تَتَأَمَّلُ
فِرَاشَتَهَا.. كَانَتِ الْفِرَاشَةُ هَادِئَةً كَمَا تَرَكَتْهَا.. ظَنَّتْ
أَنَّهَا نَائِمَةٌ.. فَعَادَتِ إِلَى غُرْفَتِهَا لَكِي لَا تَزْعَجَهَا.

لَمْ تَزُرْ حَدِيقَةَ الْقَصْرِ كَعَادَتِهَا فِي كُلِّ عَصْرِ تَقْرِيبًا،
فَقَدْ كَانَتْ مَكْتَفِيَةً بِفِرَاشَتِهَا الَّتِي تَنْتَظَرُهَا فِي الشُّرْفَةِ كَمَا
كَانَتْ تَعْتَقِدُ.. وَعِنْدَمَا حَلَّ الْمَسَاءُ ذَهَبَتْ مِنْ جَدِيدٍ
إِلَى الشُّرْفَةِ، وَكَانَتْ قَدْ أَغْلَقَتْ فَتْحَةَ الْإِنَاءِ بِإِحْكَامٍ

شديد حتى تضمن بقاء الفراشة ولا تكون هناك أي
فرصة أمامها للخروج من الإناء..

توقعت أن ترى الفراشة تطير وترقص بعد فترة من
الاستراحة والنوم الطويل، لكنّها وجدتّها ما زالت
تلتصق في الجانب نفسه من الإناء لم تتحرك، تأملتّها
فوجدتها حزينة، ضعيفة، هزيلة.. فأصابها العجب..

ما سرّها؟؟

لماذا تغيرت؟؟

كل شيء موجود في الإناء.. لديها طعام من ورود
كثيرة متنوعة وضعتها لها في داخل الإناء.. ولديها ماء
عذب نظيف.. والإناء الواسع ملكها وحدها.

فتحت فوهة الإناء.. دخل الهواء المنعش فاهتز
جناحا الفراشة.. رأتها تتحرك ببطء كأن الفوهة
تمتصّها..

وفي لحظات.. كانت الفراشة تطير خارج

السُّرْفَةُ .. ترقصُ وتضحكُ . راقبتُها .. فوجدتها تتَّجه
نحو الحديقةِ .. نحو صديقاتِها الفَرَّاشاتِ .. لتنعمَ
بالحُرِّيَّةِ .. قَالَتِ الأَمِيرَةُ الجميلةُ في نَفْسِهَا :

«آآه .. ما أجملَ الحُرِّيَّةُ .. هذا ما تُريدُ أَنْ
تُخبرني به الفَرَّاشَةُ الآن .. الحُرِّيَّةُ شيءٌ مقدَّسٌ وليس
مُجَرَّدَ مَكَانٍ فِيهِ الطعامُ والشربُ .. لَقَدْ كُنْتُ مخطئةً
فِيمَا فعلتُ .. كَيْفَ أسجنُ الفَرَّاشَةَ وأنا أكرهُ
السجونَ؟! ألا يكفي السجنُ الَّذِي أنا فيه؟!» ..

الهواءُ وحدهُ في السجنِ يحملُ نساءَ الحُرِّيَّةِ ،
هُوَ الحرُّ الوحيدُ في الأقفالِ المملوءةِ بالمساجينِ ،
الهواءُ لا يفرِّقُ بَيْنَ مجرمٍ و بريءٍ .. يوزعُ نساءهُ بلا
حسابٍ ؛ ودُونَ رقيبٍ أو حسيبٍ ..

ولا يُمكنُ لأحدٍ أن يسجنَ الهواءَ الحرَّ المنطلقَ
بلا قيودٍ ، فَهُوَ صنوُ الحُرِّيَّةِ ، هَذِهِ طبيعتهُ الخالدةُ
والمستمرةُ مُنذُ دهورٍ ..

هل هُنَالِكَ مِنْ ادَّعَى يَوْمًا بَأَنَّ لِلْهَوَاءِ سَجَنًا قَضْبَانَهُ
من نورٍ وجدرائه من ضوءٍ !!؟؟

فلا الحديدُ الصلبُ ولا الإسمنتُ المسلحُ
بإمكانهما مجتمعين أو منفصلين حجز الهواء عن
طيرانه كما شاء ومتى شاء. فالهواءُ هو الحياةُ نفسها،
وبغيرِ الهواءِ لا أحرار ولا عبيد..

ولطالما حاولَ بعضُ الموهومين سجنَ الهواءِ في
زجاجاتٍ فارغةٍ، لَكِنَّهُ كَانَ يَتَسَلَّلُ وَيَتَمَدَّدُ وَيَتَقَلَّصُ كَمَا
يَشَاءُ، فَالْقِيُودُ لَا تَسْرِي عَلَى الْجَمِيعِ، حَتَّى الْوَرْدَةِ
الَّتِي تُسَجَّنُ فِي مَزْهَرِيَّةٍ تَبْتُ أُرِيحَهَا وَتَمْنَحُهُ لِلنِّسَائِمِ
تَنْقُلُهَا بِحُرِّيَّةٍ أَيْنَمَا تَشَاءُ، فَلَا يُمَكِّنُ لِلظَّالِمِ أَنْ يَمْنَعَ
شُرُوقَ الشَّمْسِ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ حَبْسَ الْهَوَاءِ عَنِ
الْهُبُوبِ فِي الْفَضَاءِ، أَوْ مَنَعَ الْمَطْرَ عَنِ التَّسَاقُطِ مِنَ
الغُيُومِ.. أَوْ حَجَبَ ضَوْءَ الْقَمَرِ فَلَا يَغْمُرُ الشُّهُولَ
وَالثَّلَالَ وَالْجِبَالَ.



الْحُرِّيَّةُ تَعْشَقُ الْحُرِّيَّةَ، لَدَيْهَا أَسْرَارٌ وَأَحْلَامٌ،
وَعَدْوُهَا يَفْتَقِدُ لِنَفْسِهِ الْحُرِّيَّةَ، فَمَنْ يَعَادِيهَا لَا تَمْنَحُهُ
بَعْضاً مِنْ أَسْرَارِهَا وَأَحْلَامِهَا، بَلْ تَهْدِيهَا لِكُلِّ
الْمَظْلُومِينَ وَالْمَسْجُونِينَ بِإِلَاءِ ذَنْبٍ..

تَظَلُّ رَفِيقَتَهُمْ فِي مَنَامِهِمْ وَحَيَاتِهِمْ.. تَسْجُنُ نَفْسَهَا
مَعَهُمْ.. بَيْنَمَا الظَّالِمُ يَبْحَثُ عَنْهَا فَلَا يَجِدُهَا..
وَيَكْتَشِفُ فِي النِّهَايَةِ أَنَّهُ يَمُوتُ أَسِيرًا، فِيمَا تَبَقَى
رِياحِينَ الْحُرِّيَّةِ تَزْهَرُ بِإِلَاءِ انْقِطَاعِ.

كَانَتْ الْأَمِيرَةُ الصَّغِيرَةُ تَتَحَاوَرُ مَعَ نَفْسِهَا بِهَدْوٍ
مِثْلَ طَبِيعَتِهَا الَّتِي تَمِيلُ إِلَى الشَّفَافِيَةِ الْمُثَلَّى، وَالسَّكِينَةِ
الْبَائِثَةِ عَلَى الطُّمَأْنِينَةِ..

كَانَتْ تَتَحَاوَرُ مَعَ نَفْسِهَا، لَيْسَتْ تِلْكَ النَّفْسُ
الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، بَلْ نَفْسُهَا الطَّيِّبَةُ الَّتِي تَمَلَأُ رُوحَهَا
عَطْرًا وَنَفَاسَةً..

هِيَ النَّفْسُ النَّقِيَّةُ الطَّاهِرَةُ الْأَمَّارَةُ بِالْخَيْرِ وَالْعَطَاءِ

لِكُلِّ النَّاسِ، بِلا تَفْرِيقٍ بَيْنَ أَلْوَانٍ وَأَشْكَالٍ، وَأَلْسِنٍ
وَأَعْرَاقٍ..

فما أحلاها من نفسٍ لا تتعالى ولا تتفاخرُ بما
وهبها الله، بل تتواضعُ، لِأَنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ،
فَهُوَ الَّذِي يُعْطِي بِلا سِوَالٍ أَوْ طَلِبٍ، وَكَمَا يَمْنَحُ
بِلا أَسْبَابٍ فَإِنَّهُ يَسْتَرُدُّ عَطَايَاهُ عِنْدَمَا يُرِيدُ بِلا اسْتِثْنَانٍ.

فلا يَغْتَرَّ من أَعْطِيَ ووهبَ، بل الشُّكْرُ واجبٌ على
مَنْ نَالَ مِنَ الْعَطَايَا مَا لَا يُحْصَى وَلَا يَعُدُّ..

أَمَّا الْاِفْتِخَارُ بِالنِّعَمِ فَهَذَا لَيْسَ مِنْ قَلْبِهَا وَلَا مِنْ
نَفْسِهَا.. فَهِيَ تَعْلَمُ أَنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَكَمَا يَمْنَحُ
يَمْنَعُ.. وَكَمَا يُعْطِي يَأْخُذُ، وَلَيْسَ لِلْمُوْهوبِ فَضْلٌ
وَلَا مِيزَةٌ.. وَعَلَى مَنْ يَحْسِنُ التَّفْكِيرَ أَنْ لَا يَغْتَرَّ بِنَفْسِهِ،
وَيُذْرِكُ أَنَّ مَا يَأْتِيهِ قَدْ يَضُرُّهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْفَعُهُ إِذَا لَمْ تَكُنْ
نَفْسُهُ طَيِّبَةً.. فَهِيَ تَعْلَمُ أَنَّ لِلْإِنْسَانِ أَنْفُسًا مُتَعَدِّدَةً،
أَنْوَاعَهَا الْكُبْرَى: الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، وَاللَّوَامَةُ، وَالْمُظْمِئَةُ.



الْأَمِيرَةُ الصَّغِيرَةُ ذَكِيَّةٌ جَدًّا، فَهِيَ تَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ
 أَنَّ النَّفْسَ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ هِيَ تِلْكَ الَّتِي تَأْمُرُ صَاحِبَهَا
 بِمَا تَهْوَاهُ مِنْ ظَلَمٍ لِلنَّفْسِ أَوْ لِلْآخَرِينَ . . كَمَا أَنَّهَا تَنْهَاهُ
 عَنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ . . وَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِطَلِبَاتِهَا
 وَيَلْتَزِمَ أَوْامِرَهَا أَوْ يَرْفُضَ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِهِ وَحَدَهُ لَا بِيَدِ
 سِوَاهُ . . نَجَّاحُهَا وَفَشْلُهَا ثَمَرَةٌ لِشَجَرَةٍ يَزْرَعُهَا صَاحِبُهَا
 فِي أَعْمَاقِهِ . . إِمَّا شَجَرَةٌ خَيْرٍ فَتَلْقَى ثَمَارَ الْخَيْرِ . . وَإِمَّا
 شَجَرَةٌ سُوءٍ فَلَا تَلْقَى غَيْرَ ثَمَارِ السُّوءِ . .

أَمَّا اللِّوَامَةُ فَهِيَ الَّتِي تَلُومُ صَاحِبَهَا عَلَى مَا فَاتَهَا
 مِنَ الْخَيْرِ وَمَا فَعَلْتَهُ مِنْ شَرٍّ، فَتَنْدُمُ فَوَاتِ الْأَوَّلِ كَمَا
 تَنْدُمُ عَلَى فِعْلِ الثَّانِي . .

وَأَمَّا الْمُطْمَئِنَّةُ فَهِيَ الَّتِي سَكَنْتْ إِلَى رَبِّهَا وَطَاعَتِهِ،
 وَلَمْ تَسْكُنْ إِلَى سِوَاهُ.

الْأَمِيرَةُ الذَّكِيَّةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي تَعِيشُ فِي قَصْرِ أَبِيضٍ
 نَائٍ، عِنْدَ رِبْوَةٍ خَضْرَاءَ مُرْتَفَعَةٍ، تَحِيطُ بِهَا مَجْمُوعَةٌ مِنْ

الوديانِ والتلالِ، فلا تبدو للنَّاظرينَ من حولِها..
تَمضي أَيامها في عزلةٍ تامَّةٍ عَنِ النَّاسِ..

الأميرةُ شغوفةٌ جدًّا بِالْعِلْمِ والقِرَاءَةِ والكِتَابَةِ..
فهيَ تحرصُ على مَعْرِفَةِ كُلِّ ما سبقَ.. كما تهوى
البحثَ في العلومِ الَّتِي تجعلُها تزدادُ مَعْرِفَةً وإيماناً
وحبًّا وإخلاصاً لِلَّهِ..

تحبُّ أن تعرفَ كُلَّ شيءٍ عَن كُلِّ شيءٍ في الحَيَاةِ
الدُّنْيَا، وهي تعلمُ أَنَّ معرفتها بِكُلِّ شيءٍ أمرٌ مستحيلٌ،
وخاصَّةً أَنَّهُ ليسَ أمامها من علمٍ سوى ما يتوفَّر لَدَيْهَا
من كتبٍ، سواء أكانتُ من كتبِ التاريخِ والعلومِ
المُخْتَلِفَةِ، أو من قِصَصِ ورواياتِ من الخَيَالِ أو من
الوَأَقِعِ، أحضرها لَهَا أبوها فِيمَا مضى من أيامِ وهي
تَعِيشُ في قَصْرِها المنيفِ، وأحياناً يزيدُ عَلَيْهَا قَلِيلاً
ما يشاءُ ما بَيْنَ وقتِ وآخر..

كانتُ نَهْمَةً جدًّا، وتقرأُ كُلَّ ما يصلُها من كتبٍ

أولاً بأولٍ . . وخاصة تلك الروايات البديعة الساحرة، فتعيشُ في تفاصيلها المثيرة وأحلامها الأخاذة، حتى تُظنَّ نفسها جزءاً من القصة أو الرواية، وأحياناً تشعرُ بأنَّها هي بطلَّة القصة نفسها . .

لم تكنْ هذه الأميرة الجميلة تُظنُّ على الإطلاق أنها ستُكونُ في يوم من الأيام بطلَّة حقيقيَّة لقصة ترويها الأجيالُ المتعاقبة . . عاماً بعدَ عامٍ . . وجيلاً إثرَ جيلٍ . .

وفي الواقع؛ لم يكنْ لدى الأميرة الجميلة في قَصْرِها الكبيرِ خيارَ آخر أو هوية ثانية يُمكنُ أنْ تُمارسها، فليسَ لديها شيءٌ تفعله غيرَ قراءة الكتبِ عامَّةً والقِصصِ خاصَّةً، إذ لم يكنْ في زمانها حاسوب ولا تلفاز، وبطبيعة الحالِ لم تكنْ هناك شبكة (إنترنت) ولا (فايسبوك) أو (أنستغرام) أو (تويتر) . . ولا حتى مُجرَّد هاتفٍ بدائيٍّ . . وكل ما كانت تملكه مُجرَّد أوراقٍ وأقلامٍ بكلِّ الألوان، ومجموعة أحلامٍ

تدورُ في رأسِها الصَّغِيرِ وتُريدُ أن تطيرَ وتحلّقَ في
 الفضاءِ، حتى تبلغَ أبعدَ نقطةٍ في الكونِ الفسيحِ .
 كَانَتْ لَدَيْهَا مَجْمُوعَةٌ ضَخْمَةٌ جَدًّا مِنَ الْقِصَصِ
 الْمُتَنَوِّعَةِ . . يُمَكِّنُ أَنْ تَمَلَأَ بِهَا مَكْتَبَةَ عَظِيمَةَ مِثْلِ
 مَكْتَبَاتِ الْأَسَاطِيرِ الَّتِي يَتَمَنَّى كُلُّ إِنْسَانٍ مَحَبًّا لِلْكَتَبِ
 وَالْمَكْتَبَاتِ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ وَاحِدَةً مِثْلَهَا، وَخَاصَّةً مِنْ
 يَهْوَى الْقِرَاءَةَ بِشَغْفٍ وَيَعِيشُ مَغْرَمًا بِالْأَحْلَامِ السَّعِيدَةِ
 وَالرُّوَايَاتِ الْمُثِيرَةِ . .

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ مِثْلَهَا؛ لَا يَمْلِكُ وَسِيلَةً لِمُضِيَةِ
 الْوَقْتِ غَيْرَ الْقِرَاءَةِ الْمُسَلِّيَةِ الْمُتَمَتِّعَةِ، وَالْحَافِلَةِ بِالْمَعْرِفَةِ
 الشَّامِلَةِ؟!





الْمَشْهُدُ الْخَامِسُ

الْبُسْتَانِيُّ الْأَصَمُّ الْأَبْكَمُ

أَحْيَانًا.. . كَانَتِ الْأَمِيرَةُ الْجَمِيلَةُ تَرَاوِدُهَا رَغْبَةٌ
عَارِمَةٌ بِالْتَّمَرْدِ وَكَسْرِ سَجْنِهَا الْكَبِيرِ.

تُرِيدُ أَنْ تَرَى «الضُّوَاءَ» الْحَقِيقِيَّ الْمُجَرَّدَ عَنْ كُلِّ
زَيْفٍ.. .

تُرِيدُ أَنْ تَكْتَشِفَ بِنَفْسِهَا الْحَيَاةَ الْحَقِيقِيَّةَ خَارِجَ
الْأَسْوَارِ.. .

تُرِيدُ أَنْ تَرْفَسَ السَّجْنَ وَالْقَيْودَ.. . أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَى
الْوَاقِعِ الْحَقِيقِيِّ.. .

أَنْ تَكْتَشِفَ كَيْفَ يَعِيشُ النَّاسُ مِنْ خَلْفِ الْحَدَائِقِ
وَالْبَسَاتِينِ وَالْهَضَابِ اللَّتِي تَحِيْطُ بِقَصْرِهَا الْمُنِيفِ
الْمَشْحُونِ بِالْفَخَامَةِ وَالثَّرَاءِ؟!.. .

لكنَّ خروجَها إلى ما وراء أسوارِ القَصْرِ لم يَكُنْ
مسموحاً به على الإطلاقِ، بل من المُستحيلاتِ في
ظلِّ قرارِ الحَاكِمِ الصارِمِ والمراقبةِ الشَّدِيدَةِ من جانبِ
مُرَبِّئَتِهَا (نِعْمَةُ اللَّهِ) . .

تِلْكَ الأَسوارُ العالِيَةُ الباسِقَةُ الَّتِي تظَلُّهَا أشجارُ
سامِقَةٌ شاهِقَةٌ بلا حدودٍ، حتى تكاد تُخفي بأغصانِها
العالِيَةِ المُتشابِكَةِ وأوراقها المُتلاحِمَةَ ضَوْءَ الشَّمْسِ
ولونِ السَّمَاءِ ونورِ القَمَرِ . .

فَقَدْ كانَ قَصْرُها مُستوراً عَن كُلِّ عَيْنٍ كَأَنَّهُ سَرابٌ
داكِنٌ مُندسٌّ في ليلٍ حالِكٍ فلا يَرى ولا يُرى،
ولا يَدري عَنهُ أَحَدٌ . .

ولولا شعاعُ ضَوْءٍ ينسلُّ من هنا أو من هُنَاكَ لما
استطاعتِ التَمييزُ ما بَيْنَ صَبْحٍ ومساءً . . ما بَيْنَ فَجْرِ
وغروبٍ . . أو ليلٍ ونهارٍ .

كما أَنَّ النَزولَ إلى حديقَةِ القَصْرِ أَمْ يَكُنْ مَسْموحاً

به إلا في أوقاتٍ محدَّدة، وتشتدُّ الأوامرُ الصارمةُ حدَّةً في الأوقاتِ التي يَكُونُ فِيهَا البُسْتَانِيُّ حاضراً ليقومَ بعمله مُعتيماً بورودِ الحديقةِ وأشجارها الجميلةِ .

والبُسْتَانِيُّ الَّذِي كَانَ يُوَدِّي مهمته المَطْلُوبَةَ مِنْهُ بهدوءٍ بالغٍ وحذرٍ شديدٍ كان متقدِّماً بالسنِّ، الصمِّ طبيعته والكتمانُ ديدنه، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ أَصَمٌّ وَأَبْكَمُّ، ليس من زمنٍ قريبٍ بل مُنْذُ ولادته، كَمَا أَنَّ نظره ضعيفٌ فلا يَرَى إلا لمسافةٍ قريبةٍ جداً، فضلاً عن أَنَّهُ وَبِالرَّغْمِ من ضعفِ نظره فَإِنَّهُ لَا يرفعُ رأسه إلى الأعلى ليصوبَ بَصَرَهُ الضعيفَ نحو القَصْرِ، مَهْمَا كَانَتِ الظروفُ . .

حتى وَإِنْ كَانَ يُرِيدُ شَكَرَ اللهَ عَلَى نِعَمِهِ . . بل عَلَيْهِ أَنْ يَبْقَى مَنَحْنِي الرَّأْسِ دَائِماً، وَلَا يَنْظُرُ إِلَى غَيْرِ الْمَكَانِ الَّذِي يَضَعُ فِيهِ قَدَمَهُ أَوْ يَضْرِبُ فِيهِ فَأَسَهُ أَوْ مَعُولَهُ .

علماً أَنَّهُ لو حاولَ ذَلِكَ فلنَ يَرَى شَيْئاً على مسافةٍ مترين كَأبعدِ حدودِ . . فنظره ضعيفٌ لِلغَايَةِ . . وقد

اختيرَ لِلقيامِ بِهذهِ المَهْمَةِ السَّرِيَّةِ بِدَقَّةٍ وَعنايةٍ شَدِيدَتَيْنِ،
وليس بِشَكْلِ عَشوائِيٍّ .

هو لا يَعْرِفُ من يَسْكُنُ القَصْرَ، ولا يَدْرِي من
بِداخِلِهِ . . . وَرُبَّمَا لا يَعْرِفُ أساساً أَنَّ هُنَاكَ قَصْرًا . . .

أما في حَيَاتِهِ خارجِ العَمَلِ فممنوعٌ عَلَيْهِ أَيْضاً
زِيَارَةُ أَحَدٍ، كَمَا أَنَّهُ لا يُسْمَحُ لَهُ بِاستِقْبالِ أَحَدٍ . . . علماً
أَنَّهُ وحيدٌ دائماً، «مَقْطُوعٌ مِنْ شَجَرَةٍ» كَمَا يَقُولُونَ .

كوخه قَرِيبٌ من القَصْرِ، يَأْتِي بِصَمْتٍ وَيذهبُ
بصَمْتٍ، لا يَرَى ولا يُرَى . . . مُنتَقِي بِدَقَّةٍ بِالغَةِ، فَهُوَ
يُحِبُّ الوَحْدَةَ والعِزْلَةَ، لا يُرِيدُ من الحَيَاةِ شَيْئاً غَيْرَ
الزَّرَاعَةِ والمَزْرُوعَاتِ . . .

ومن هنا كان اختيارُه صائِباً مَوْفَقاً، بل تَمَّ بِمَنْتَهَى
البراعةِ، وبإِشرافٍ مُباشِرٍ من الحَاكِمِ . . . فحتى لو أَدْرَكَ
البُستَانِي أَنَّ هاهنا يوجدُ قَصْرٌ جَمِيلٌ قائمٌ بِشموخِ إزاءه
لم يَكُنْ ليجرؤُ على مُجرّدِ التَّفكيرِ بِمَنْ يَسْكُنُ في هذا

القَصْرُ أوِ بِمَنْ يَزُورُهُ، فَضْلاً عَنِ الْبُوحِ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ بِهَذَا السِّرِّ الْخَطِيرِ.

كَانَتْ الْأَوَامِرُ صَارِمَةً وَشَدِيدَةً الْوُضُوحِ لِلْغَايَةِ، أَمَّا التَّحْذِيرَاتُ فَكَانَتْ مُرْعَبَةً وَمُبَاشِرَةً، وَقَدْ تَمَّ التَّفَاهُْمُ مَعَهُ بِالْإِشَارَاتِ الَّتِي يَعْرِفُهَا مِنْ يَفْهَمُ لُغَةَ الصُّمِّ، وَلَمْ تَدْعُ تِلْكَ الْأَوَامِرُ أَمَامَهُ فَسْحَةً لِأَيِّ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الْمُحْتَمَلَةِ:

«لَوْ تَفَوَّهْتَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ أَمَامَ أَيِّ أَحَدٍ، أَوْ كَشَفْتَ سِرَّ الْقَصْرِ الْمَسْتُورِ؛ فَلَا تَلُومَنَّ غَيْرَ نَفْسِكَ، فَخَامَةُ الْحَاكِمِ أَصْدَرَ أَمْرَهُ النَّهَائِيَّ بِحَقِّكَ، فِي حَالِ تَجَاوُزِكَ الْأَوَامِرِ، أَوْ فَعَلْتَ الْمَحْذُورَ؛ الْأَمْرُ سَيَنْفِذُ فُوراً... فَصَلُّ رَأْسِكَ عَنِ جَسَدِكَ».

وَكَانَ الْبُسْتَانِيُّ شَدِيدَ الْإِلْتِمَامِ بِالْأَوَامِرِ، وَكَيْفَ لَا يَلْتَزِمُ وَالْحَكْمُ بِالْقَتْلِ جَاهِزٌ، وَالسِّيَافُ مَتَاهِبٌ مَرْتَقِبٌ يَنْتَظِرُ التَّنْفِذَ؟!!

يَحْضُرُ مَرَّتَيْنِ بِالْأَسْبُوعِ، يَسْقِي الزَّرْعَ، يَنْظِفُ

أَرْضَ الْحَدِيقَةِ، يَشْدُبُ الْعَشْبَ، ثُمَّ يَرْحَلُ بِهَدْوٍ دُونَ
أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ.

وفي مقابلِ ذَلِكَ؛ كَانَتْ مُرَبِّئُهَا وَمَعْلَمْتُهَا (نِعْمَةُ اللَّهِ)
سَجِينَةً مِثْلَهَا، تَرِافِقُهَا كظَلِّهَا، وَتَحْرُصُ هِيَ أَيْضاً عَلَى
تَنْفِذِ تَعْلِيمَاتِ الْحَاكِمِ دُونَ إِخْلَالِ بَأْيٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا..

كَانَتْ تَحْرُصُ عَلَى إِبْعَادِ الْأَمِيرَةِ عَنْ كُلِّ سُوءٍ..
حَتَّى إِنَّهَا كَانَتْ تَمْنَعُهَا مِنْ لَمَسِ نَبَاتَاتِ الْحَدِيقَةِ فِي
الْوَقْتِ الَّذِي يَسْمَحُ لَهَا بِالتَّنَزُّهِ فِيهَا، وَلَا تَمْنَحُهَا أَي
فُرْصَةً لِلسَّيْرِ عَارِيَةً الْقَدَمَيْنِ عَلَى الْعَشْبِ الطَّرِيقِيِّ
الْأَخْضَرِ؛ كَمَا كَانَتْ تَتَمَنَّى دَائِماً مِنْذُ كَانَتْ طِفْلاً
صَغِيرَةً. وَإِذَا هَبَّتْ نَسْمَةٌ خَفِيفَةٌ كَانَتْ تَطْلُبُ مِنْهَا أَنْ
تَدْخَلَ الْقَصْرَ فَوْرًا.

لَمْ تَكُنِ الْمُرَبِّئَةُ مُجَرَّدَ مُرَبِّيةٍ.. فَهِيَ مَعْلَمَةٌ نَاجِحَةٌ،
وَكَانَتْ تَعَامَلُ الْأَمِيرَةَ وَكَأَنَّهَا جِزءٌ مِنْهَا، أَوْ كَأَنَّهَا ابْنَتُهَا
الَّتِي لَمْ تَلِدْهَا..



وَالْأَمِيرَةُ الصَّغِيرَةُ الْجَمِيلَةُ كَانَتْ تَنْفِذُ أَوْامِرَ مُرَبِّتِهَا
الَّتِي تَعْتَبِرُهَا مِنْ نَاحِيَّتِهَا أَمَّا لَهَا دُونَ اعْتِرَاضٍ كَيْلَا
تَحْزَنُهَا وَتَسَبِّبَ لَهَا مُشْكَلَةً مَعَ وَالِدَيْهَا الْحَاكِمِ . .

فَهِيَ الَّتِي رَبَّتْهَا وَاعْتَنَتْ بِهَا مِنْذُ مَوْتِ أُمِّهَا قَبْلَ
سِنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ، يَوْمَ كَانَتْ طِفْلَةً صَغِيرَةً فِي السِّنَوَاتِ
الْأُولَى مِنْ عَمْرِهَا، فَأَصْبَحَتْ هِيَ الْأُمُّ وَالْمُرَبِّبَةُ
وَالْمُعَلِّمَةُ وَالصَّدِيقَةُ. هِيَ لَا تَذْكُرُ أُمَّهَا كَثِيرًا . . وَكُلُّ يَتِيمٍ
يَعْرِفُ كَمْ هُوَ صَعْبٌ فَقْدَانُ الْأُمِّ . . وَحَتَّى الْكَبِيرُ سِنًا
يَفْقَدُ الْكَثِيرَ مِنَ الْأُمُورِ الْجَمِيلَةِ يَوْمَ يَفْقَدُ أُمَّهُ . . فَكَيْفَ
إِذَا مَا كَانَ فَاقِدَ الْأُمَّ طِفْلَةً صَغِيرَةً فِي عَمْرِ الزُّهُورِ؟!

وَهَلْ هُنَالِكَ أَغْلَى وَأَطْيَبَ وَأَنْقَى مِنَ الْأُمِّ!

وَمَنْ فِي الْكُونِ مِثْلَ الْأُمِّ سَمَاحَةً وَجَمَالًا وَرِقَّةً
وَمُودَّةً؟!

تَنْصَتْ بِاهْتِمَامٍ إِلَى أَحْلَامِ أَبْنَائِهَا وَأَفْكَارِهِمْ بِلَا مَلَلٍ
وَلَا كَلَلٍ . .

تُصغِي بِشَغْفٍ مَهْمَا كَانَتْ تِلْكَ الْأَحْلَامُ وَالْأَفْكَارُ
بَسِيطَةً وَغَرِيبَةً، وَحَتَّى لَوْ كَانَتْ سَخِيفَةً كَمَا يَظُنُّ بَعْضُ
الْكِبَارِ . . فَلِلصَّغَارِ أَحْلَامٌ أَكْبَرُ مِنْ حَجْمِ جَبَلٍ . . وَأَوْسَعُ
مِنْ فِضَاءِ سَمَاءٍ . . كَمَا أَنَّ لِلْأُمَّ قَلْبًا أَرْحَبُ مِنْ كَوْنٍ . .

وَهِيَ الَّتِي تَطْلُبُ مِنْ أَبْنَائِهَا مَرَارًا وَتَكَرَّرًا أَنْ
يَحْكُوا لَهَا قِصَصَهُمُ الْمُمْتَعَةَ بِاسْتِمْرَارٍ، وَتَلْحُ عَلَيْهِمْ
لِكِي يَسْرُدُوا عَلَيْهَا الْمَزِيدَ مِنَ الْمَوَاقِفِ وَالْأَحْدَاثِ الَّتِي
يُصَادِفُونَهَا بِإِلَاحِجَلٍ أَوْ وَجَلٍ . . ثُمَّ تَكَاثِفْتُهُمْ بِهَدَايَاهَا
الْقِيَمَةَ؛ حِكَايَةَ مِنْ أَجْمَلِ حِكَايَاتِهَا الشَّائِقَةِ الَّتِي
لَا تَنْقَطِعُ . . وَكُلُّ حِكَايَاتِهَا مَبْهَرَةٌ . .

ثُمَّ تَخْتُمُهَا قَبْلَ النَّوْمِ بِضَمَّاتِهَا الْحَنُونَةِ الدَّافِئَةِ
السَّخِيَّةِ . . وَقِبَلَاتِهَا الطَّيِّبَةِ مِنْ نَبْعِ قَلْبٍ لَا يَنْضُبُ حُبُّهُ . .
مِثْلَ شَلَالِ حَبِّ هَادِرٍ .

وَكَمُ جَمِيلَةٍ هِيَ حِكَايَاتُ الطِّفْلِ الرَّائِعَةِ الَّتِي
تَنْثُرُهَا الْأُمُّ مِنْ فَمِهَا الطَّاهِرِ كَثْرَ الزَّهْرِ لِلرِّيْحَانِ .



تَخْرُجُ مِنْ حَنَايَا الْقَلْبِ جَوْهَرَةٌ فَتَقَعُ فِي الْقَلْبِ
مَاسَةً خَالِدَةً فِيهِ . .

حكايتها لا تُنسى مُطلقاً . .

وكما أنها لا تتوقف عن العطاء ما دامت الحياة؛ فإنَّ
عظاتها وحكمها لا تزول مع مرور الأيام والأزمان . . بل
تبقى راسخة في قلوب أبنائها قبل عقولهم .

الأُمُّ عزفُ نايٍ ماهرٍ، وقصيدةُ شاعرٍ مغامرٍ،
وغابةُ مرجٍ متشابكةُ الأغصانِ، وبساتين زهرٍ مزرکشة
الألوانِ عامرةٌ بالإيمانِ، مزروعةٌ بالفرحِ، مروية
بالأملِ، تسعدُ القريبَ والبعيدَ على حدِّ سواءٍ، كما
تسعدُ العيانَ والسماعَ، تفرجُ الهمَّ وتزيلُ الغمَّ، تجعلُ
النجومَ بهيئةَ والزهورَ زكيةً . .

توهجُ بكبرياءٍ وابتهاجٍ، فتسرحُ الكواكبُ في جنباتِ
الأكوانِ تزهو بانسراحٍ . . فتشرقُ السماءُ بنورٍ وضياءٍ . .

وإذا الصبحُ لاحَ وبالحخيرِ فاحَ؛ لوحثَ راحتاه .

وإذا الغروبُ الجميلُ بِالْحَمْرَةِ سَاخَ وَبَسْرُوهُ بَاخَ؛
لمعت مُقْلَتَاهُ.

قَالُوا إِنَّ الْأُمَّ مَدْرَسَةٌ فَمَا كَذَبُوا وَمَا ضَلُّوا..

فَالْأُمُّ فِضَاءٌ رَحْبٌ مِنَ الْعَطَاءِ لَا يَنْضَبُ.. فِي
قَلْبِهَا الْكَبِيرِ بَسَاتِينَ مِنَ الْحَبِّ وَالْوَدِّ وَالْأَمْلِ، كَلَّمَا
قَطَفْنَا وَرْدَةً نَبَتْ عَشْرَاتِ الْوَرُودِ..

وَمَدَامُعُ الْعَيْنِ تَعْرِفُ أَنَّ الْأُمَّ أَنْقَى مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ
الْمُصْفَى.

وَالسَّنَابِلُ الذَّهَبِيَّةُ تُدْرِكُ أَنَّ الْأُمَّ أَعْلَى وَأَثْمَنُ مِنَ
الذَّهَبِ اللَّامِعِ الْبَرِاقِ، وَأَزْكَى مِنَ الْعَطْرِ الْفَوَاحِ
الْأَخَازِ.. بَلْ إِنَّهَا أَشَدُّ بَهَاءً وَجَمَالاً مِنْ قَوْسِ الْقَرْحِ.

وَهَلْ هُنَالِكَ أَعَذْبُ مِنْ قَلْبِ الْأُمَّ الَّتِي أَلْقَتْ
بَوْلِهَا الرُّضِيعَ فِي النُّهْرِ وَهِيَ وَاثِقَةٌ بِنَجَاتِهِ، خَشِيَّةٌ عَلَيْهِ
مَنْ ظَلَمَ الْحَاكِمِ الَّذِي كَانَ يَقْتُلُ كُلَّ مَوْلُودٍ جَدِيدٍ، كَمَا
جَاءَ فِي قِصَّةِ النَّبِيِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ!؟



ولم يَكُنْ أَمَامَ الْأَمِيرَةِ الْجَمِيلَةِ بَعْدَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ
 الْخِيَارَاتِ الْمُتَحَرِّرَةِ فِي ظِلِّ الْقِيُودِ الْمُتَحَجَّرَةِ، إِلَّا أَنَّ
 خَيَالَهَا الْخَصْبَ كَانَ يَنْمُو وَيَزْدَهْرُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ؛
 فَيَخْتَرِقُ الْجُدْرَ، وَيَرْتَقِي فَوْقَ الْحَوَاجِزِ وَالْعَوَائِقِ
 وَالسَّحْبِ، يَحْطُمُ الْأَسْوَارَ بِلَا وَجَلٍ وَلَا رَهْبَةٍ.. . مِثْلَ
 نَبَاتِ عَمَلِقَ يَنْمُو بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ، يَمَلَأُ الْأَمْكَنَةَ
 وَالْجُدْرَانَ بِلَا اسْتِئْذَانٍ.. .

هَكَذَا هُوَ الْخَيَالُ الْحُرُّ الْمُنْطَلِقُ.. . لَا يَعْرِفُ
 حُدُودًا يَتَوَقَّفُ عِنْدَهَا، وَلَا أَفْقًا ضَيِّقًا يَتَحَرَّى التَّحَرُّرَ
 مِنْهُ وَالْإِنْعِتَاقَ مِنْ خَوَائِهِ الْمَعْرُوزِ.. . بَلْ هُوَ ثَاقِبٌ لِكُلِّ
 عَاقِقٍ، مَحَلِّقٌ فِي كُلِّ الْفَضَائِتِ وَالْآفَاقِ الْمُمْتَدَّةِ حَتَّى
 حُدُودِ السَّمَاءِ.. . بَلْ أَبْعَدُ مِنْهَا.. . إِذَا وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ
 سَبِيلًا.





الْمَشْهُدُ السَّادِسُ

هُوَائِي هُوَيْتِي

سَأَلَتِ الْأَمِيرَةَ مَعْلَمَتَهَا وَمُرَبِّيتَهَا يَوْمًا: هَلِ الْكِتَابَةُ
أَفْضَلُ أَمْ الْقِرَاءَةُ؟

سؤالٌ بسيطٌ سَأَلْتُهَا إِيَّاهُ فَتَحَيَّرَتْ.. لَكِنَّهَا أَجَابَتْ
بِالْقَوْلِ:

فِي الْوَاقِعِ لَا بُدَّ وَأَنْ تَسْبِقَ الْقِرَاءَةُ الْكِتَابَةَ..
فَالْقِرَاءَةُ تَعَلِّمُ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، وَالْكِتَابُ لَهُ
خُصُوصِيَّةٌ فَرِيدَةٌ لَا تَهْزَمُ وَبَرِيْقٌ لَا يَهْرَمُ.. أَمَا الْكِتَابَةُ
فَهِيَ كَذَلِكَ مَفِيدَةٌ، لِأَنَّهَا تَسَاعِدُ الْإِنْسَانَ عَلَى تَطْوِيرِ
وَتَرْسِيخِ مَا تَعَلَّمَهُ.. كَمَا تَنْقُلُ فِكْرَهُ وَآرَاءَهُ السَّدِيدَةَ
لِلْآخَرِينَ سِوَاءِ فِي الرَّمَنِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ أَوْ الْأَزْمَانِ
الَّتِي تَلِيهِ.. فَتَبْقَى الْكُتُبُ الْمَفِيدَةُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَهَا أَنْ

تَبَقَى . . وكما أَنَّ الْقِرَاءَةَ مَهْمَةٌ جَدًّا فَإِنَّ الْكِتَابَةَ مَهْمَةٌ
أَيْضًا لِأَنَّهَا تَطَوَّرُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ الشَّخْصِيَّةِ وَتَرْفَعُ
مِنْ مَسْتَوَى التَّفَكِيرِ . .

أَمَّا الْخَيَالُ - كَمَا أَخْبَرْتَهَا الْمُرَبِّيةُ - فَشَيْءٌ رَائِعٌ
مَمْتَعٌ، وَمَنْ مِنَ النَّاسِ لَا يُحِبُّ الْخَيَالَ . . وَالْإِبْدَاعَاتُ
الْإِنْسَانِيَّةُ كَانَتْ كُلُّهَا خِيَالًا فِي خِيَالٍ . .

أَلَا يَحْلُمُ الْحَالِمُونَ بِالتَّحْلِيْقِ مِثْلَ الطُّيُورِ؟!
وَالسَّبَاحَةِ فِي عَمَقِ الْبَحَارِ مِثْلَ الْأَسْمَاكِ وَالقُرُوشِ؟!

فَكَمْ جَمِيلٌ هُوَ الْخَيَالُ الْمَمْتَعُ! وَكَمْ نَحْتَاجُ لِكِي
نَعْمَلُ بِكُلِّ جِدٍّ وَنَشَاطٍ لِنَتَمِيَّةِ الْخَيَالِ عَلَى مَدَى وَاسِعٍ،
أَوْسَعِ مِنَ الْأَحْلَامِ، وَأَكْبَرَ مِنَ الْوَاقِعِ!

وَسَادَ صَمْتٌ لِبَعْضِ الْوَقْتِ قَبْلَ أَنْ تُوَاصَلَ الْمُرَبِّيةُ
كَلَامَهَا قَائِلَةً:

وَكَمَا أَنَّ لِلْقِرَاءَةِ شُرُوطًا حَتَّى تَكُونَ قِرَاءَةً فَعَالَةً
مُفِيدَةً، فَإِنَّ الْكِتَابَةَ لَا بُدَّ أَنْ تَقُومَ هِيَ أَيْضًا عَلَى أُسُسٍ

متينة، فلا تكون مجرد كتابة بالقلم أو بما ستأتي به التطورات العلمية في المستقبل.

فلكي تكوني كاتبة جيدة عليك أن تكوني قارئة جيدة.. ولكي تصبري على الكتابة يجب أن تصبري أولاً على القراءة..

وأنا أرى كم أنت محبة للقراءة، وهذا يبشر بنجاحك بالكتابة.. فلا يمكن أن يكون الإنسان كاتباً ناجحاً ومتميزاً من غير قراءة دائمة مستمرة..

فالحرص على الموازنة مطلوب بأن تكوني صديقة دائمة للكتاب إذا أردت أن تُصبحي كاتبة محترفة..
وعندما تكونين قادرة على الكتابة لا يعني أن الكتابة صارت أفضل من القراءة.. فالقراءة لا يستغني عنها أشهر الكتاب في العالم.. بل على العكس.. فكلما تمكن الكاتب من أسلوبه ازداد حبه للقراءة..

القارئ المجدِّ والكاتب المُجتهد وجَّهان لعملةٍ
واحدة.

أعجبتِ الأُميرةُ الصَّغيرةُ بِالجملةِ الأخيرة، وكتبتها
في ورقةٍ ملونةٍ وعلَّقتها على بابِ غرفتها، فَهِيَ كَانَتْ
وما تزالُ تهوى الخيالَ والكتابةَ، كما تهوى المُطالعةَ
والقراءةَ..

باتتِ الأُميرةُ الجميلةُ تُفكِّرُ كثيراً بأن تكتبَ كما
كتبَ غيرها كُتباً كثيرةً..

أرادت يوماً أن تُحاولَ وتجربَ كتابةَ قصَّةٍ قصيرةٍ
مُسلِّيةٍ، تشغلُ بِهَا نَفْسَهَا، وتملأُ وقت فراغٍ طويلٍ،
لا يَنقُطعُ ليلاً أو نهاراً.. إلا عِنْدَ النومِ أو التَّحليقِ في
عالمِ الخيالِ..

وهَلْ هُنَالِكَ خيالٌ أوسعُ قصَّةَ مَهْمَا كَانَتْ
قصيرةً؟!

قَالَتْ فِي سِرِّهَا: لَعَلَّ رَغْبَتِي بِالْكِتَابَةِ تَكُونُ هِوَايَتِي

وتحوّل إلى شيء يُميّزني، فتصبح هويتي التي يعرفني
بها الناس، فإذا صارت هويتي التي أبرع فيها فإنّها
كلّما ذكرت ستكون هويتي التي يذكرني بها الناس.

كَانَتْ قَدْ قَرَأَتْ يَوْمًا عَنْ طِفْلِ كَلَّمَا زَارَتْ أُمُّهُ
مَدْرَسَتَهُ تَحَدَّثَتْ مَعَ مَدْرَسَاتِهِ عَنْ هَوَايَتِهِ الْفَرِيدَةِ، فَقَدْ
كَانَتْ الْمَدْرَسَاتُ جَمِيعًا مَنبَهَرَاتٍ مِنْ هَذِهِ الْهَوَايَةِ..

وَمَنْ هُوَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَخِيلَ مَا هِيَ تِلْكَ
الْهَوَايَةُ أَوْ يَضَعُ احْتِمَالًا صَائِبًا لَهَا؟!

كَانَتْ هَوَايَتُهُ غَرِيبَةً جَدًّا.. كَانَ شَغُوفًا
بِالْحَشْرَاتِ.. وَمَوْلَعًا بِمُتَابَعَتِهَا وَمَلَا حَقَّتْهَا، وَجَمَعَ
مَا يَسْتَطِيعُ مِنْهَا، وَتَفَحَّصَهَا فِي كُلِّ أَحْوَالِهَا..
فَأَصْبَحَتْ هَوَيْتُهُ هِيَ نَفْسَهَا هَوَايَتُهُ..

وَمَعَ مَرُورِ الْأَيَّامِ زَادَ شَغْفُهُ بِالْحَشْرَاتِ، وَأَصْبَحَ
هَمُّهُ تَعَلُّمُ كُلِّ شَيْءٍ عَنْهَا، حَتَّى يُصْبِحَ عَالِمًا فِي هَذِهِ
الْمَخْلُوقَاتِ الصَّغِيرَةِ الضَّعِيفَةِ. إِنَّهُ شَيْءٌ رَائِعٌ حَقًّا!

هذا ولدٌ مبدعٌ، جعلَ من هوايتهِ هويتهُ التي يُريدُ
أنْ يتخصَّصَ بها..

وبالفعلِ فقدَ درسَ العلومَ، وركزَ في دراساتهِ على
علمِ الحشراتِ، وبرعَ في هذا العلمِ المميّزِ..

وبعدَ أنْ كانَ هذا الطفلُ قَبْلَ أنْ يُصبحَ شاباً يهتمُّ
بمعرفةِ كلِّ شيءٍ عَنِ الحشراتِ، في المدرسةِ وفي
البيتِ وفي الشارعِ، من بابِ الفضولِ والرغبةِ بالتَّسليَّةِ
والمعرفةِ الممتعةِ؛ أَصْبَحَ فِيمَا بَعْدَ عالماً كبيراً يشارُ
إِلَيْهِ بِالْبِنَانِ.

قَالَتْ أُمُّهُ لِلْمُعَلِّمَةِ يَوْمًا أَنَّهُ عِنْدَمَا يَسَافِرُ خَارِجَ
الْبِلَادِ مَعَ عَائِلَتِهِ يَحْرُصُ عَلَى هَوَايَتِهِ حَتَّى فِي السَّفَرِ،
فَيَقْصِدُ الْحَدَائِقَ وَالْبَسَاتِينِ بَحْثًا عَنِ الْحَشْرَاتِ.

قَدْ يَقُولُ الْبَعْضُ: «مَا هَذِهِ الْهَوَايَةُ الْغَرِيبَةُ؟».

وَالْبَعْضُ الْآخَرُ قَدْ يَقُولُ: إِنَّهَا هَوَايَةُ «مَقْرَظَةٌ»..

ليس مهمماً ما يَقُولُهُ النَّاسُ؛ الْمُهْمُّ أَنَّهُ فَعَلَ

ما يحبُّ . . . لِأَنَّهُ نَجَحَ وَأَبْدَعَ بِمَا يَحِبُّ . . . وَصَارَتْ
هُوَائَتُهُ هُوَيْتُهُ . . . وَبِهَا حَقَّقَ غَايَتَهُ . . . فَصَانَ الْهُوَايَةَ الَّتِي
أَحَبَّ، وَاکْتَشَفَ هُوَيْتَهُ لِيَصْنَعَ بِهَا الْأَعَاجِيبَ .

قَالَتِ الْأَمِيرَةُ الصَّغِيرَةُ لِمُرِيَّتِهَا :

كُلُّ نَجَاحٍ فِي مَجَالٍ مَا يَبْدَأُ فِي الْغَالِبِ بِالْهُوَايَةِ . .
كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَبْدَوْنَ أَعْمَالَهُمُ الْكَبِيرَةَ بِهُوَايَاتٍ
صَّغِيرَةٍ . قَدْ تَكُونُ الْهُوَايَةُ الرَّسْمُ أَوْ الْقِرَاءَةُ أَوْ كِتَابَةُ
الشَّعْرِ أَوْ الرِّيَاضَةِ . . فَإِذَا طَوَّرَ كُلُّ إِنْسَانٍ هُوَايَتَهُ
الصَّغِيرَةَ؛ فَإِنَّهَا مَعَ مَرُورِ الْأَيَّامِ سَتَصْبِحُ هُوَايَةً كَبِيرَةً،
يَسْتَطِيعُ مِنْ خِلَالِهَا أَنْ يَحَدِّدَ مَا إِذَا كَانَ يُرِيدُهَا أَنْ تَسْتَمِرَّ
مَعَهُ فِيمَا سَيَأْتِي مِنَ الْحَيَاةِ أَوْ لَا . . سِوَاءِ عَلَى سَبِيلِ
الْهُوَايَةِ كَمَا كَانَتْ، أَوْ لِعَمَلٍ يَفْتَحُ أَمَامَهُ سُبُلَ النَّجَاحِ . .

فَكَّرَتْ وَتَأَمَّلَتْ :

يَا تَرَى كَمْ مِنْ كَاتِبٍ مَشْهُورٍ بَدَأَ حَيَاتَهُ بِالْكِتَابَةِ
«هَاوِيًا» عَلَى أَوْرَاقٍ وَقِصَاصَاتٍ صَّغِيرَةٍ . . ثُمَّ أَضْحَتْ

أفكاره مَعَ مرورِ الأيامِ والليالي جزءاً مُهماً من حَيَاةِ
الناسِ، ليس في عصره فقط بل في عصورٍ كَثيرةٍ من
بعدهِ؟!!

وَكَمْ مِنْ شاعرٍ مرموقٍ كان طفلاً صغيراً في مدرسةٍ
نائيةٍ، يتلو شعره البسيطَ دَاخِلَ فصله المَغلَقِ وبين
جُدرانِهِ الأربعةِ على بَضْعَةِ تلاميذٍ، أو في مناسباتٍ
مُخْتَلِفَةٍ على خشبةِ مسرحِ المدرسةِ!

وَكَمْ مِنْ مهندسٍ بارِعٍ بدأ حَيَاتَهُ بهوايةٍ ترتبطُ
بهندسةِ غرفتهِ وألعابِهِ الصَّغِيرَةِ!

وَكَمْ مِنْ مخترِعٍ وصانعٍ محترفٍ بدأ فَنَّهُ بابتكارِ آلَةٍ
بسيطةٍ!

وهكذا.. كم وكم وكم...

ثم وقفتِ الأَمِيرَةُ الصَّغِيرَةُ ورفعت يَدَيها إلى
الأعلى.. مطَّت جسدَها كأنَّها تستعدُّ لِلقَفزِ العالِي، ثُمَّ
قَالَتْ بصوتٍ مرتفعٍ:

«من المُهمِّ جداً جداً . . أن نكتشف أنفسنا، ونسبرَ عمقَ ذواتنا، وأن يبرزَ كلُّ شخصٍ ما يتحلَّى به من مزايا فريدةٍ خاصةٍ به وحده، ولربَّما كانَ يَمْتَلِكُ من الأشياءِ الخافيةِ ما يدهشُه، ومع شدَّةِ توهُّجها فإنَّها تخفى حتى عن صاحبها نفسه . .

لِذَا فعلى كلِّ غافلٍ أنْ يَبْحَثَ بدأبٍ في أعماقِ نَفْسِهِ حتى يعثرَ على كثيرٍ كثيرٍ ممَّا يُمكنُ أن يُميِّزه عن غيره مِنَ النَّاسِ، ويجعله في بريقٍ دائمٍ بينهم» . .

وفي هذه اللحظة كان قرارُ الأَمِيرَةِ . . قرَّرتُ أن تكتبَ وتكتبَ وتكتب . . وأن تضعَ على الورقِ فصولاً من بناتِ أفكارِها . . وأن لا تتوقَّفَ عنِ الكِتَابَةِ في الأيامِ القادمة . . فهِيَ الممتعةُ الوحيدةُ الَّتِي يُمكنُها أن تشغلَ نَفْسَهَا بها، وفي الوَقْتِ نَفْسِهِ فإنَّها سَوْفَ تسجِّلُ في ثنايا كتاباتها أفكارها الكثيرةَ وخيالاتها المنطلقة . .

ومضتِ الأَمِيرَةُ في هوايتها . . كتبتُ قصصاً جميلةً

رائعةً، وَكَانَتْ كُلَّمَا انْتَهتْ مِنْ كِتَابَةِ قِصَّةٍ وَضَعْتَهَا فِي خَزَانَتِهَا الْحَدِيدِ مَعَ مَجْوَهَرَاتِهَا الثَّمِينَةِ، ثُمَّ تَغْلُقُ عَلَيْهَا الْبَابَ وَتَقْفَلُهُ بِمِفْتَاحٍ كَبِيرٍ، وَتَبْقِي الْمِفْتَاحَ مَعَهَا، مَعْلَقًا بِسِلْسَلَةٍ ذَهَبِيَّةٍ كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ مِنْ جِيدِهَا.. وَلَا تَدْعُ الْمِفْتَاحَ مَهْمَلًا فِي أَيِّ مَكَانٍ..

هي لَا تَخْشَى مِنَ الْمُرَبِّيَّةِ، وَلَا تَخْشَى رُبَّمَا مِنْ أَحَدٍ يُرِيدُ أَنْ يَسْرِقَ الْمِفْتَاحَ وَيَفْتَحَ الْخِزْنَةَ الْمَحْكَمَةَ الْإِغْلَاقِ لِيَطَّلَعَ عَلَيْهَا.. فَهِيَ تَعْلَمُ تَمَامًا أَنْ لَا أَحَدٌ يَجْرُو عَلَى دُخُولِ الْقَضْرِ غَيْرَ أَبِيهَا الْحَاكِمِ، وَمِنْ حِينٍ بَعِيدٍ إِلَى حِينٍ بَعِيدٍ آخَرَ..

أَمَّا إِذَا طَلَبَ أَبُوهَا مِنْهَا أَنْ تُعْطِيَهُ الْمِفْتَاحَ فَسَوْفَ تُعْطِيهِ إِيَّاهُ دُونَ تَرَدُّدٍ.. لَكِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يَفْعَلَ.. وَكَذَلِكَ لَوْ طَلَبَتْ مِنْهَا مُرَبِّيَّتُهَا.. لَيْسَ فِي الْأَمْرِ تَهْمَةٌ سَوْءٍ.. وَلَيْسَ فِي مُحَاوَلَاتِهَا لِلْكِتَابَةِ شَرًّا أَوْ فِتْنَةً.. بَلْ هِيَ رَغْبَةٌ بِأَنْ تَكْتَبَ وَتَنْقَلَ مَا فِي دَاخِلِهَا وَتُخْزِنَهُ فِي كِتَابٍ مِنْ وَرْقٍ.

وكلُّ ما في الأمرِ أن الأُميرةَ تُريدُ أن تُشعرَ بأنَّ
 هوائِتها البسيطةَ خاصّةً بِها وحدها فقط، كما أنّها
 لا تزالُ في بدايةِ الطريقِ، وتحبُّ أن تحتفظَ بما تكتبُ
 لأنفسِها حتى تتقنَ الكتابةَ وتصبحَ مؤلِّفةً كَبيّرةً، تكتبُ
 روائعَ جميلةً، مثل الكُتبِ التي تقرأها وتستمتعُ بها .

وفي يومٍ من الأيامِ، تركت أوراقَ قصّةٍ جديدهِ
 تكتبُها مُنذُ فترَةٍ وشارفتُ على الانتهاءِ مِنْها على مكْتَبِها
 الهادئِ في زاويةِ غرفِتها الواسعةِ، لم تضعُها في
 خزانِتها الحديديةِ على غيرِ عاداتِها . . وغادرتُ لتقرأ
 كتاباً جديداً في غرفةٍ أخرى .

وفيما كانتِ المُربّيةُ تنظفُ غرفةَ الأُميرةِ وقعتُ
 عينها على تلكِ القصّةِ . . كانتِ المُربّيةُ خلالها
 تلاحظُ انشغالَ الأُميرةِ بِالكتابةِ . . وكانتُ تسألُها عمّا
 تكتبُ فتقولُ لها: ليس الآن . . سأخبرك لاحقاً عندما
 تنضجُ الأفكارُ .

لم تَكُنِ الْمُرِيَّةُ تُرِيدُ التَّدخُّلَ فِي حَيَاتِهَا وَأَفْكَارِهَا،
لكن عِنْدَمَا وَقَعَتْ عَيْنَاهَا عَلَى الْأوراقِ الْمَوْضُوعَةِ عَلَى
الْمَكْتَبِ، قرأتُ بَعْضَ فقراتِها بتلقائِيَّةٍ وعفويَّةٍ، وليس
بداعي الفضولِ أو التجسسِ على أَمِيرَتِها الغاليةِ على
قلبِها . .

شعرتِ الْمُرِيَّةُ بفخرٍ كَبِيرٍ وسعادةٍ لا توصفُ . .
فرحتُ بما قرأتهُ من كَلِمَاتٍ ساحرةٍ ومعانٍ جميلةٍ،
بأسلوبٍ رشيقٍ شائقٍ .

لم تَكُنِ تعلمُ أَنَّ الْأَمِيرَةَ الجميلةَ تمتلكُ كلَّ هَذِهِ
الموهبةِ البديعةِ في الْكِتَابَةِ وتألِفِ الْقِصَصِ . .

وَهَلْ هُنَاكَ أَجْمَلُ من أَنْ يَبْتَدِعَ الْإِنْسَانُ قِصَصاً
ينسجُها من خياله فترويها الأجيالُ عبرَ السنينِ الآتيةِ؟!!

نعم . . رَبِّمَا هُنَاكَ ما هُوَ أبهى وأنقى وأجلُّ
وأطهرُ . . لَيْسَتْ سِوَى الْقِصَصِ الَّتِي يرسمُها الْوَأَقِعُ
الْمُتَسلسِلُ الّمْتمثلُ كارتدادِ ضوءٍ على صفحتهِ البيضاءِ،

لَكِنَّهَا قِصَصٌ بَوَاقِعٍ يَشْبَهُ الْخَيَالَ بِنَقَائِهِ وَصَفَائِهِ وَلَمَعَةِ
نجومه . .

قَدْ تَكُونُ قَمَرًا لَا يَشْبَهُ الَّذِي نَعْرِفُهُ . . أَوْ سَحَابَةً
طَيْفٍ خَفِيفَةٍ مَهْفَهْفَةٍ بِيضَاءٍ لَا تَحْمِلُ دَنَسًا وَلَا قَذَارَةً . .
أَوْ سَمَاءً بِأَلْوَانِ قَوْسِ الْمَطَرِ تَهْوَاهُ نَفُوسٌ تَشْتَهِي
الْجَنَّةَ . . أَوْ نَسْمَةً عَطِرٍ بِطَعْمٍ وَرِدٍ لَا يَسْتَسِيغُهُ إِلَّا
أَصْحَابُ الذَّوْقِ الرَّفِيعِ . .

إِنَّهَا الْحَقِيقَةُ الَّتِي لَا يَتَذَوَّقُهَا أَحَدٌ إِلَّا الْحَالِمُونَ . .
وَمَا قَرَأْتَهُ لَيْسَ إِلَّا نَوْعٌ أَدَبٍ مِنَ الْحَقِيقَةِ الْمَشْرُوقَةِ بِرَدَاءِ
الطَهَارَةِ وَالنَّقَاءِ .

أَسْرَعَتِ الْمُرَبِّيَّةُ نَحْوَ أَمِيرَتِهَا الصَّغِيرَةِ وَهِيَ تَحْمِلُ
أوراقَ القصة . . وَقَالَتْ لَهَا بِلَهْفَةٍ :

«لِمَاذَا تُخْفِنَ عَنِّي كُلَّ هَذَا السَّحْرِ؟» . .
ضَحَكَتِ الْأَمِيرَةُ :

«وَهَلْ أَنَا سَاحِرَةٌ؟! إِذَا لَا بُدَّ لِي مِنْ أَنْ أُسْحَرَكَ» . .

عِنْدَمَا سَمِعْتَ الْمُرِيَّةُ ذَلِكَ تَذَكَّرْتَ وَالِدَ الْأُمِيرَةِ . .
وتابعت كلامها :

«إذن أنت تسمحين لي أن أقرأ هذه القصة الجميلة» . .
«لَيْسَتْ جَمِيلَةً . . مُجَرَّدَ مَحَاوَلَةٍ مِنَ الْمَحَاوَلَاتِ» . .
«أسلوبك رائع يا أميرتي الصَّغِيرَةَ، لَقَدْ كَبُرَتْ . .
وصار أسلوبك فريداً ومميزاً» . .

ضحكت الأُمِيرَةُ مِنْ طَرِيقَةِ حَدِيثِ مُرِيَّتِهَا وَكَادَتْ
تقع على ظهرها من شِدَّةِ الضَّحْكِ . . ثُمَّ قَالَتْ :
«كم أنا سعيدة! أشعر بسعادة لا توصف» .

«أَتَمَنِّي أَنْ تَمَلَأَ سَعَادَتَكَ هَذِهِ كُلَّ الْيَوْمِ . . وَالآنَ
اسمحي لي يا أميرتي أن أتركك لأحبس نَفْسِي فِي
غرفتي هَذِهِ اللَّيْلَةَ . . وَلَا أُدْرِي إِنْ كُنْتُ سَأَسْتَطِيعُ النَّوْمَ
قَبْلَ قِرَاءَةِ الْقِصَّةِ مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ حَتَّى أَغْفُو عَلَى رَوْعَتِهَا
وَأَحْلُمَ بِتَفَاصِيلِهَا» . . وَمَضَتْ الْمُرِيَّةُ إِلَى غَرَفَتِهَا .

فكرت الأُمِيرَةُ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ :

«ذهبت لتحبس نَفْسَهَا .. لا أريد ذَلِكَ ولا أسعى
لكي أحبسَ أحداً .. الحبسُ شيءٌ مؤلمٌ جداً ..
وخاصة لِمَنْ في قلبه تَعِيشُ الحُرِّيَّة .. يا ليتني ما كتبت
ويا ليتني ما حَبَسْتُهَا» ..
سمعتها المُرَبِّيَّةُ فَقَالَتْ:
«هذا حبسٌ جميلٌ أيتها الجميلة .. لا تقلقي ..
فأنا حرةٌ بِكَ» .





الْمَشْهَدُ السَّابِعُ

نَهَارٌ بِإِلا شَمْسٍ وَلَيْلٌ بِإِلا قَمَرٍ

ذهبت المُرَبِّيَّةُ إلى غرفتها . . وبدأت تقرأ بشغف
قِصَّةَ أَمِيرَتِهَا الصَّغِيرَةِ بِتَفَاصِيلِهَا المدهشة وبحماسة
بالغة، حتى امتزجت تَمَاماً في كُلِّ أحداثها ولم تعد
تُفَكِّرُ بشيءٍ غَيْرِ متابعة القصة . .

تروي القصة حكاية بلدة بَعِيدَة هائلة سعيدة، يعيش
أهلها في سلام وأمان ووثام، ولم يَكُنْ هُنَاكَ
ما يزعجهم، إلى أن حدث شيء جعل حَيَاتَهُمْ غريبة
عَنْ كُلِّ شعوب الدُّنْيَا . . وَأَصْبَحَتْ أُمُورُهُمْ عجيبة
لا يدانيها عجب . .

وسبب ذَلِكَ يدعو للدهشة والاستغراب . . فمثل
أمرهم لا يَحْدُثُ إلا في الأَحْلَامِ، أو في القِصَصِ

الْحَيَالِيَّةِ وَالْأَوْهَامِ . . لَكِنَّهَا فِي الْوَاقِعِ حَقِيقَةٌ أَغْرَبُ مِنْ
خِيَالٍ وَأَبْعَدُ مِنْ حَلْمٍ وَأَشَدُّ مِنْ وَهْمٍ . .

الْحَيَاةُ فِي بِلَدْتِهِمْ لَا تَعْرِفُ النِّظَامَ الَّذِي يَعْرِفُهُ
مَعْظَمُ سُكَّانِ الْأَرْضِ ، فَالسَّمْسُ تُشْرِقُ عِنْدَهُمْ وَتَغِيبُ
بِلَمَحِ الْبَصَرِ ، ثُمَّ تُشْرِقُ وَتَغِيبُ . . لَيْسَ كَمِثْلِ بَاقِي
الْمَدَنِ وَالْقُرَى وَالْبِلَادِ ؛ فَشُرُوقُهَا وَغُرُوبُهَا يَحْدُثَانِ فِي
كُلِّ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، وَفِي أَوْقَاتٍ غَيْرِ مُتَكَرِّرَةٍ
وَلَا مُنْتَظِمَةٍ ، مُغَايِرَةً تَمَامًا لِمَوَاعِيدِهَا الْمَعْتَادَةِ الَّتِي
يَعْرِفُهَا الْجَمِيعُ وَتَذَكَّرُهَا الْكُتُبُ الْقَدِيمَةُ وَالْحَدِيثَةُ مِنْ
يَوْمِ خَلْقِ اللَّهِ آدَمَ إِلَى يَوْمِ هَذِهِ الْقِصَّةِ . .

صَحِيحٌ أَنَّ فِي الْعَالَمِ بِلَادًا وَمَنَاطِقَ تَغِيبُ عَنْهَا
السَّمْسُ شَهْرًا عِدَّةً ، أَوْ تَغْرِبُ وَتُشْرِقُ سَرِيعًا ، أَوْ قَدْ
يَسْتَمِرُّ النَّهَارُ شَهْرًا ، أَوْ قَدْ يَطْوِلُ اللَّيْلُ أَوْ يَطْوِلُ
النَّهَارُ . . لَكِنْ هَذِهِ الْبِلَادَةُ أَمْرًا مُخْتَلِفًا تَمَامًا . .

وَقَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ مَدْهَشًا لِمَنْ يَجْهَلُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ



الَّتِي تَحْدُثُ لِبَلَدَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْعَالَمِ، وَرُبَّمَا يَعْتَقِدُ مِنْ
يَسْمَعُ بِهَذَا الْأَمْرِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ أَنَّهَا مُجَرَّدُ دَعَابَةٍ، وَإِذَا
رَأَاهَا بِنَفْسِهِ قَدْ يَظُنُّهَا خُدْعَةً بَصْرِيَّةً، أَوْ رُبَّمَا تَوَهَّمُ
أَحَدَهُمْ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ غَيْضٌ مِنْ خَيَالٍ وَاسِعٍ مِتَالِقٍ،
لَا يَعْرِفُ حُدُوداً وَلَا أُسُوراً..

لَكِنَّهَا حَقِيقَةٌ لَا مِرَاءَ فِيهَا وَلَا جِدَالَ، وَهَذَا قَدْ
يَكُونُ أَكْثَرَ مَا يُثِيرُ الْأَسْتِعْرَابَ مِنْ دُونِ مُقَدَّمَاتِ
مُخْتَصِرَاتِ أَوْ تَفْصِيَلَاتِ مَفْسَّرَاتِ.

وَبِالرَّغْمِ مِنْ غَرَابَةِ الْأَمْرِ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يَسْمَعْ - كَمَا
يَبْدُو - بِمِثْلِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ الطَّبِيعِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ غَيْرِ سَكَانِ
الْبَلَدَةِ..

فَهِيَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِهِمُ الْخَافِيَاتِ، الَّتِي لَا يَعْرِفُهَا
أَحَدٌ غَيْرِهِمْ، وَلَنْ يَصْدَقَهَا أَيْضاً أَحَدٌ غَيْرِهِمْ، فَهَمُّ
الَّذِينَ رَأَوْهَا بِأَمِّ الْعَيْنِ، وَعَرَفَوْهَا، وَاعْتَادُوا عَلَيْهَا،
وَأَضْبَحَتْ جِزْءاً لَصِيقاً بِهِمْ.

قَدْ تَكُونُ - إِذَا تَنَائَرَ خَبَرَهَا - سَرَاباً فِي بَيْدَاءٍ ،
 أَوْ أُسْطُورَةَ مِنْ أُسَاطِيرِ الزَّمَانِ مُدَوَّنةً فِي كِتَابٍ قَدِيمٍ
 رَثٌّ غِلَافُهُ ، تُشْبِهُ حِكَايَاتِ الْأَحْلَامِ الْوَاهِمَاتِ . .
 لَا لَيْلَ فِيهَا اكْتَمَلَ ، وَلَا نَهَارَ اجْتَمَعَتْ فِيهِ سَاعَاتُهُ
 الصَّغْرَى - وَلَا حَتَّى الْكُبْرَى - مِنْ شُرُوقٍ وَضُحَى
 وَظَهِيرَةٍ وَعَصْرٍِ وَغُرُوبٍ ، وَلَا سَاعَاتِ لَيْلٍ بَدَتْ لِلْعِيَانِ
 تَامَةً ؛ مِنْ شَفَقٍ وَغَسَقٍ وَسَحَرٍ . .

وَكَمْ يُعَانِي قَمَرُ الْبَلَدَةِ وَهُوَ (ابن الليالي) فِي أَحْلَامِهِ
 الْمُتَقَطِّعَةِ الْمُتَنَائِرَةِ! فَمَا أَنْ يَبْدَأَ لَيْلَ مُكْحَلًا عَيْنِ السَّمَاءِ
 بِعِثْمَتِهِ النَّاعِسَةِ ، حَتَّى يَنْقَلِبَ الظَّلَامَ ضِيَاءً قَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرَّ
 اللَّيْلُ بِظَلْمَتِهِ ، فَيَحْتَجِبُ (ابن الليالي) مِنْ جَدِيدٍ . . حَيَاءً
 وَخَفْرًا . . .

لَعَلَّهَا حَيَاةُ «لَيْلٍ وَنَهَارٍ» أَغْرَبَ مِنْ خِيَالِ كَاتِبِ
 قِصَصِ أَطْفَالِ حَالِمٍ ، وَاسِعِ الْآفَاقِ . . أَوْ - رُبَّمَا - قَلْ :
 أَوْسَعُ مِنْ رَوَايَاتِ مُخَادِعِ مُرَاوِغِ آفَاقِ .



ففي يوم بارد أو حار أو معتدل، ولا فرق بين الأيام؛ تُشرق الشمسُ زاهيةً عند منتصف ليل قاتمٍ.. ثم فجأةً تغرب بعد ساعتين أو ثلاث ساعات، وربما أربع.. وفي بعض الأحيان أقل أو أكثر..

لم يعد أحدٌ يأبه بأن يعد ساعات الليل ولا ساعات النهار، كما أنّ سكان البلدة لم يعودوا يحسبون سني أعمارهم، فلا أحد منهم يعرف كم يبلغ عمره تمام المعرفة.. يُخمنون ويتحزرون مثلما يشاؤون.

وكما تُشرق الشمسُ فجأةً فإنها تغيبُ فجأةً.. فيسود الظلام الدامس قبل أن تعود الشمسُ من جديدٍ لتُشرق فجأةً مرةً أخرى وكأنّها لم تغب قبل فترة قصيرة، أو لعلّها تخفت خلف سحابة مطيرة ثم أشرقت ثانية بعد أن تبددت السحابة أو بعد أن ساقتها الريح إلى مكانٍ بعيدٍ عن وجه الشمسِ.

أو ربما غربت الشمسُ حزينةً ثم أشرقت بهيةً



سعيدةً في الوَقْتِ نَفْسِهِ الَّذِي غَرِبَتْ فِيهِ وَعَادَتْ قَبْلَ
يوم واحد . . لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَحْدُدَ يَوْمًا وَلَا نِصْفَ
يوم . . لِأَنَّ الْوَاقِعَ مَرَبِكٌ لِلْجَمِيعِ بِإِلا اسْتِثْنَاءً . .

ولربِّمَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَغَرِبَتْ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ
مَرَّتَيْنِ . . أَوْ ثَلَاثَ مَرَاتٍ . . غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَهَا أَنْ
أَشْرَقَتْ وَغَرِبَتْ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ لِكُلِّ إِشْرَاقٍ أَوْ غُرُوبٍ
أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِ مَرَاتٍ مُتتَالِيَةٍ .

ومضت تقرأ:

سكان البلدة الطيبون القانعون اعتادوا على هذا
النمط الغريب من العيش، فلم يعد تعدد شروق
الشَّمْسِ وَلَا غُرُوبِهَا الْمُتَكَرِّرِ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ مَدْعَاةً
للاهتمام أو الاستغراب، فالأمر سيَّان؛ أشرق أم
غربت . . .

غير أنَّ شُرُودَ الشَّمْسِ عَنْ طَبِيعَتِهَا وَعَدَمَ انْتِظَامِهَا
أَحْدَثَ فِي الْبَلَدَةِ شَيْئًا عَجَبًا، فَقَدَّ بَاتِ النَّاسِ كَشْمَسِهِمْ



غَيْرُ مَنْضَبِطِينَ فِي مَوَاعِيدِهِمْ . . يَنَامُونَ بِإِلا لَيْلٍ
وَيَسْتَيْقِظُونَ بِإِلا فَجْرٍ . .

لَا يَعْرِفُونَ الدَّقَّةَ فِي السَّاعَاتِ وَلَا فِي الْمَوَاقِيتِ،
حَتَّى فَقَدَ الْوَقْتَ مَكَانَتَهُ بَيْنَهُمْ.

لَا نِظَامٌ ثَابِتٌ يَحْدُدُ لَهُمُ الزَّمْنَ وَالْأَعْمَالَ فِي
مَوَاعِيدِهَا الْمُنْتَظِمَةِ، وَلَا سَاعَةٌ تَبِينُ لَهُمْ لَيْلَهُمْ مِنْ
نَهَارِهِمْ، أَوْ صَبْحُهُمْ مِنْ مَسَائِهِمْ . . كُلُّ شَيْءٍ مُضْطَرِبٌ؛
نَهَارٌ بِإِلا شَمْسٍ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَلَيْلٌ بِإِلا قَمَرٍ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى .

قَنَادِيلُ الزَّيْتِ - مَثَلًا - اخْتَلَّتْ تَوَازِنُهَا، فَهِيَ فِي
اضْطِرَابٍ مُسْتَمِرٍّ دَائِمٍ، يَسْكُنُهَا قَلْقٌ وَتَذْبُذُبٌ، كَحَالِ
الْجَمِيعِ، أَمَّا الْمُوَكَّلُونَ بِهَا فَهَمُ فِي أَزْمَةٍ مِنَ الضِّيَاعِ
الْمُوحَشِ بِإِلا هَوَادَةٍ، لَا يَعْرِفُونَ مَتَى يَضِيئُونَ قَنَادِيلِ
الشُّوَارِعِ وَمَتَى يَطْفِئُونَهَا .

وكَذَلِكَ الطَّلَابُ؛ لَمْ يَعُودُوا يَعْرِفُونَ الدَّقَّةَ فِي
مَوَاعِيدِ مَدَارِسِهِمْ . . فَلَا دِرَاسَتَهُمْ مُنْتَظِمَةً وَلَا حُضُورَهُمْ

متواصل . . ومثلهم العمال والموظفون؛ لم يَعُودُوا
يُداومون في أوقات محددة.

انغمست البلدة جَمِيعُهَا في فوضى عارمة متصاعدة
مطرّدة، حتى ألفها الناس وأضحت شَيْئاً من عاداتهم
اليُومِية .

وكان صغار البلدة يسمعون من كبارها أَنَّ الشَّمْسَ
كَانَتْ تُشْرِقُ في الماضي وتغرب في موعدها الطبيعي
المعتاد، لكنَّ الأُمُورَ تَغَيَّرَتْ فَجْأَةً وانقلبت الحال رأساً
على عقب، أمر ما حدث، فَتَغَيَّرَتْ طَبِيعَةُ الشَّمْسِ ثُمَّ
سارت الحَيَاةُ شَيْئاً فَشَيْئاً نحو الاضطراب، إلى أن
أَصْبَحَتْ الفوضى أمراً مألوفاً.

حاول بَعْضُ الصبية أَكْثَرَ من مَرَّةٍ أن يَعْرِفُوا سبب
تغير حال الشَّمْسِ، لَكِنَّهُمْ كَلَّمَا سَأَلُوا أَحداً سمعوا
جواباً واحداً: «لست أدري».

أما بَعْضُ كبار السنِّ من حكماء البلدة فَقَدْ كَانُوا



جَمِيعاً يمتنعون عَنِ الخوض فِي هذا الموضوع رغم أهميته، ويتنصّلون معلّلين سكوتهم بأنّهم يجهلون ما حدث.. ولطالما أثاروا الشكوك بأنّهم يَعْرِفُونَ السَّبَب، وَقَدْ حاول كَثِير مِن النَّاسِ الأصغر سناً أَنْ يَعْرِفُوا سر الشَّمْسِ وسرّ القمر لِكِنَّهُمْ لم يصلوا إلى نَتِيجَةٍ.. واكتشفوا مَعَ مرور الأيام أَنَّ هُنَاكَ رواية قَدِيمَةً بعنوان: (للقمر وجه واحد)، غَيْرَ أَنََّّهُمْ اقتنعوا برواية أخرى عنوانها: (للقمر وجوه كثيرة).. لِأَنَّ الحَقِيقَةَ تخبرهم بأن الوجوه قَدْ تَتَغَيَّرُ حسب الزمن وحسب الوقائع.. ولرُبَّمَا هذا ما يَعْنِيهِ القمر كَمَا تعنيه الشَّمْسُ بتغييرهما الدائم.

لم تعد حال الفوضى الَّتِي يُعَانِيهَا سكان البلدة أمراً يُمَكِّنُ السكوت حِياله والتغاضي عَنْهُ، بل أَصْبَحَ الوَاقِعُ مأساة حزينة تثير الفزع والرُّعب..

والمُشكِلة لم تعد تختصر فقط فِي أَنَّ سكان البلدة

يعيشون في مَكَانٍ غريبٍ عجيبٍ ناءٍ على قمة جبلٍ يحيطُ بِهِمُ السحابُ من كُلِّ جانبٍ . . فإلْمُشْكِلَةُ الأَكْبَرِ تبدو في كونهم لا يَسْتَطِيعُونَ مغادرة البلدة والهروب من هذا الوَاقِعِ، وَأَنَّهْمُ لا يملكون وسيلة يتواصلون فِيهَا مَعَ بَعِيدٍ أو قريبٍ . . كَمَا أَنَّهْمُ لم يروا أحداً يَأْتِي لزيارتهم من خارج البلدة .

وهُنَاكَ أسطورة يرويها الآباء عَنِ الأجداد ويحملها الأحفاد جيلاً وراء جيلٍ؛ تفيد بأن من يحاول مغادرة البلدة هرباً من وَاقِعِهَا لا يَسْتَطِيعُ الابتعاد كثيراً، لِأَنَّهُ سيتحول على بُعد أمتار قَلِيلَةٍ من حدود البلدة إلى صخرة صماء، أو شجرة يابسة لا ورق فِيهَا ولا ثمر .

أما كبار القرية فَقَدْ اعتادوا على تسلُّق الأشجار العالية المُنْتَصِبَةِ بشموخ على تلال مرتفعة على امتداد الحدود، والتي يحذِّرُ الراشدون صغارهم من الاقتراب مِنْهَا، يتأمَّلون الأمكنة التي تشير إِلَيْهَا الأسطورة . .

يتأملون صخوراً صلبة متناثرة في كُلِّ جانب من الحدود، كأنَّهَا رجال أو نساء في هيئات مُخْتَلِفَةٍ . . كما يرون أشجاراً يابسة خالية من الأوراق والثمر، بأشكال غريبة . . فلا يجرؤ أَحَدٌ مِنْهُم على المغامرة بنفسِهِ والاقتراب مِنْهَا، أو مُجَرَّد التَّفْكِير بمغادرة القرية .

كانوا يسمعون على فترات متباعدة أنَّ رجلاً - أو امرأة - حاول الخروج متسلقاً السور الكَبِيرَ الَّذِي يحيط بِالْبَلَدَةِ مثل سوار بِالْمَعْصَم، فيتصدى لَهُ رجال البلدة الأشداء العَقْلَاء، يمنعونه من تحقيق مراده . . لَكِنَّهُ إِذَا نجح في حالات نادرة وتملَّص مِنْهُم؛ فَإِنَّهُ يتحول لحظة خروجه من حدود البلدة وعلى بعد خطوات معدودات إلى صخرة صماء أو شجرة يابسة . .

ويزعم بَعْض الرجالِ والنِّسَاء الكبار بالسِّن أَنَّهُم رأوا ذَلِكَ بأنفسهم ولم يخبرهم بِذَلِكَ أَحَد . .

يروون قصصاً تقشعر مِنْهَا الأبدان وترتج مِنْهَا

الأفتدة .

أما بَعْضُ العقولِ الَّتِي لا تعرف حَقِيقَةَ هَذِهِ البلدة؛
فَقَدْ لا تصدق هَذِهِ الوقائعَ من شِدَّةِ هولها وغرابتها . .
والإنسانَ بطبيعة الحالِ عدو ما يجهل، على حد قول
بَعْضِ الحكماء . .

وَبَعْضُ سكانِ البلدة يزعم بَيِّنَ الحينِ والآخر أَنَّهُ
سمع بكاء خافتاً لصخرة من هنا أو لشجرة من
هُنَالِكَ . . .

وفي أَحَدِ الأيام، وفيما كانتِ السماءُ مشرقة
بشمسها المتوهجة، تسلل بَعْضُ الصبية مُسرِّعين نحو
الحدود بقرار مسبق مِنْهُمْ قَبْلَ أن ترحل الشَّمْسُ . .

اتجهوا نحو تِلْكَ البقعة الصامته الَّتِي لا يجرؤ أَحَدٌ
على الدنو مِنْهَا . .

كَانُوا حريصين أشد الحرص على ألا يراهم أَحَد . .
سلكوا الطرقات الوعرة والمنحدرات الخطرة بَعِيداً عَنِ
الأعين . . ولما بلغوا أبعَدَ مَكَانٍ يُمَكِّنُ الوصولَ إِلَيْهِ



على طرف الحدود المسوّرة؛ تسلقوا الأشجار العالية
برشاقة بالغّة، فشاهدوا ما هَوَّلَ عَلَيْهِمْ ..

لمحوا أشجاراً كَثِيرَاتٍ يابسات أُرْخَتْ أغصانها
النحيلات مستسلمةً للريح: يراقصها .. يداعبها ..
يحركها كَيْفَمَا يَشَاءُ .. كَمَا رَأَوْا على مقربة من الْمَكَانِ
أشكالاً غريبة مخيفة، بدت كَأَنَّهَا رجال ونساء نحتوا
في الصخر ..

يا لِفَزَعِ هذا الْمَشْهَدِ .. قَدْ تَكُونُ هَذِهِ الصخرة جِداً
لصبي مِنْهُمْ، أَوْ قَدْ تَكُونُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ عَمَّةً فَقَدْتَ مِنْذُ
سنين طويلة .. أَوْ قَدْ تَكُونُ جَاراً قَرِيباً أَوْ بَعِيداً ..
أو .. أو ..

تجلى الرُّعبُ البالغُ في نفوسهم؛ اصفرت
الوجوه، وجحظت الأعين، وتدلتُّ الألسن ..

نادى الصبية بَعْضُهُمْ بَعْضاً: أن تراجعوا وتقهقروا

قَبْلَ أَنْ نَفْقِدَ أَرْوَاحَنَا وَأَجْسَادَنَا وَنَصْبِحَ مِثْلَهُمْ أَشْجَاراً
وَصَخُوراً.. .

خاف الصبية خوفاً شديداً.. . هالهم ما رأوا من
هَذِهِ الرُّؤْيِ المَرُوعَةِ، فَعَادُوا أَدْرَاجَهُمْ مَصْدُومِينَ كَأَنَّهُمْ
أَصْنَامٌ مَتَحْرِكَةٌ، لَا يَنْطِقُونَ بِكَلِمَةٍ.. .

وفي طريق عودتهم لقيهم بعض الرجال، فعرفوا
من شِدَّةِ الخوفِ الَّذِي بَدَأَ وَاضِحاً عَلَى وُجُوهِهِمْ،
أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الحُدُودِ.. .

ضحك الرجال طويلاً ثُمَّ قَالُوا لَهُمْ:

«إِنَّ بَعْضَ الأَشْدَاءِ مِنَ الفَتِيَانِ مَا أَنْ يَبْلُغُوا عَمْرَكُم
لَا بُدَّ أَنْ يَفْعَلُوا كَمَا فَعَلْتُمْ، وَقَدْ أَصَابَكُمْ اليَوْمَ
مَا أَصَابَ كَثِيرِينَ مِنَّا فِي المَاضِي.. . هِيَ أَذْهَبُوا الآنَ
إِلَى بِيوتِكُمْ قَبْلَ أَنْ تَغِيْبَ الشَّمْسُ، وَارْتَاحُوا حَتَّى
تَطْمَئِنَّ نَفُوسِكُمْ بَعْدَمَا رَأَيْتُمْ مِنْ مَشَاهِدِ مَرْعَبَةٍ».



كَانَ هُوَ لِأَيِّ الصَّبِيَّةِ شَدِيدِي الحِمَاسَةِ لِلخَلَاصِ مِمَّا
يَعْتَبِرُونَهُ سَجْنًا كَثِيرًا وَاسِعًا يَعِيشُونَ فِيهِ . .

فِبِالرَّغْمِ مِنْ جَمَالِ البَلَدَةِ وَهَدُونِهَا فَقَدْ كَانَتْ حَرَكَةُ
الشَّمْسِ وَسَبَاقِهَا مَعَ القَمَرِ، وَتَنَافُسِ النِّهَارِ مَعَ اللَّيْلِ فِي
تَقَلُّبِ لَا يَتَوَقَّفُ، أُمُورٌ تُثِيرُ الغَضَبَ وَالقَلْقَ فِي
نَفُوسِهِمْ، وَبِالرَّغْمِ مِمَّا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ مَجْهُولٍ؛ فَإِنَّ
الرَّغْبَةَ بِالْحُرِّيَّةِ كَانَتْ تَسِيطِرُ عَلَى عُقُولِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ . .

لَكِنْ كَيْفَ؟

هَذَا مَا كَانَ يَشْغَلُ تَفْكِيرَهُمْ عَلَى الدَّوَامِ . . فِيمَا
يَسْتَمِرُّ سِرُّ البَلَدَةِ مَجْهُولًا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ . .

وَيَا تَرَى؛ هَلْ سَيُغَامِرُ الفَتِيَّةُ الصِّغَارَ بِحَيَاتِهِمْ
وَيُنْقَلِبُونَ عَلَى هَذَا الوَاقِعِ، أَمْ يَسْتَسَلِمُونَ وَيَعْتَادُونَ
سَجْنَهُمُ الكَبِيرَ كَمَا اعْتَادَهُ مِنْ سَبْقِهِمْ وَاسْتَسَلَمُوا أَمَامَ
هَذَا الوَاقِعِ؟!!

وَهُنَا تَوَقَّفَتِ القِصَّةُ، وَعِنْدَ هَذِهِ الجُمْلَةِ بِالنِّزَاتِ . .



وَكَاثِ الْمُرَبِّيَّةُ مَشْوَقَةٌ جَدًّا لِتَعْرِفَ مَاذَا سَيَحْدُثُ،
وَكَاثِ لَا تَدْرِي هَلْ سَتَكْمَلِ الْأَمِيرَةَ الصَّغِيرَةَ قِصَّتِهَا أَمْ
أَنهَا سَتَكْتَفِي بِهَذِهِ النِّهَايَةِ الْمَفْتُوحَةِ.





الْمَشْهُدُ الثَّامِنُ

قصر من الأحلام

الأميرة الصَّغِيرَة تَعِيشُ مَطْمَئِنَة فِي قَصْرِهَا الْمَرْمَرِي
الَّذِي يَشْبَهُ الْأَحْلَامَ، تَزِينُهُ الْأَشْجَارُ الْبَاسِقَاتُ
الْمُثْمِرَاتُ، وَالْأَزْهَارُ الْمَلُونَاتُ الزَاهِيَاتُ الْفَائِحَاتُ،
وَتَمَلُّوهُ الْأَطْيَارُ الْمُخْتَلِفَةُ الْأَشْكَالُ وَالْأَلْوَانُ وَالْأَحْجَامُ
بِأَعْدَبِ الْأَلْحَانِ، وَكَانَ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنْ جَنَاتِ
الْأَرْضِ وَنَعِيمِهَا الَّذِي يَهْوَاهُ النَّاسُ بِشَغْفٍ كَبِيرٍ، فَيَمَّا
يَطْمَعُ الْحَالِمُونَ بِهَا كَمَا يَطْمَعُ الطَّامِعُونَ بِالذَّهَبِ
وَالْحَرِيرِ، فِي كُلِّ آنٍ وَحِينَ . .

لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَشْعُرُ بِأَنَّهَا مَكْتَمَلَةُ السَّعَادَةِ . . وَأَنَّ
هُنَاكَ مَا يَنْقُصُهَا .

كَانَتْ تَشْعُرُ فِي أَعْمَاقِهَا وَكَأَنَّهَا تَعِيشُ فِي بَلَدَةٍ مِثْلِ

تِلْكَ البلدة، فرداً من أفرادها، لا ليل عِنْدَهَا مكتمل
 ولا نهار تام. . بل هِيَ كَمَا ترى في حال أسوأ مِنْهُمْ،
 فَهِيَ محجوبة عَنِ الشَّمْسِ والقمر بِشَكْلِ شبه دائم،
 لِأَنَّهَا ممنوعة من الخروج إلى الحديقة إلا نادراً،
 محرم عَلَيْهَا تجاوز الحدود المرسومة لَهَا بِكُلِّ دقة . .

صحيح أن قَصْرَهَا كَبِيرٌ واسع، وَيُمْكِنُ أن تضيع
 بَيْنَ غرفاته وردهاته وممراته. . حتى إنها تكاد أن تبدل
 أحياناً غرفها كَمَا تبدل الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةَ ملابسها. . أمَّا
 حجارة الْقَصْرِ مِنَ الدَّاخِلِ قَبْلَ الخارج فتبدو للناظر من
 شِدَّةِ جمالها المبهر وبهائها المدهش وبريقها الساطع
 وكَأَنَّهَا مصنوعة من الماس واللؤلؤ والياقوت
 والمرجان على يد صائغ ماهر وصانع باهر. . لكن
 شَيْئاً مهماً غلا ثمنه وازداد ألقه، وَإِنْ كَانَ رَفِيعاً زاهياً؛
 فلا يُمَكِّنُهُ على الإِطْلَاقِ، نعم. . لا يُمَكِّنُهُ على
 الإِطْلَاقِ؛ أَنْ يَكُونَ بديلاً عَنِ الحُرِّيَّةِ أو يحل
 مقامها. . ولو بحرف واحد.

ومن ذا الَّذِي يستبدل برضى وقناعة تأمين قيده
الأدنى بحريته الأعلى، فالْحُرِّيَّة لا تليق بِمَنْ لا عَقْل لَهُ
ولا إحساس، لِأَنَّهُ لا يُدْرِكُ الْحُرِّيَّة بمضامينها، أو
بِالأحرى: لا تليق به الْحَيَاة، لِأَنَّ الْحَيَاة وَالْحُرِّيَّة
صنوان لا يفترقان.. مثل وجهي العملة، فهما
يتشابهان بِالْحُرُوف والمعاني الكامنة، كَمَا أَنَّهُمَا
يتبادلان المناصب والمراتب الشرفية.

وصحيح أَنْ كل ما في الْقَصْرِ يعتبر من الأشياء
الفاخرة الثمينة في قيمتها المادية، البديعة في صنعها
وزخارفها؛ فكل شيء يحتويه يعدُّ من أجود ما يُمكنُ
أن تراه العين.. ستائره، أبوابه، بسطه، سرائره.. كل
شيء.. كل شيء.. لِكِنَّهُ هذا الكل شيء.. ليس
بِالْفعل كل شيء.

ومع كُلِّ هَذِهِ الفخامة.. لم تُكُنِ الأَمِيرَةَ الجميلة
راضية بعيشتها هذه، بِالرَّغْمِ من كُلِّ نعمة أنعمها الله

عَلَيْهَا من الرخاء والنعيم والثراء والتي قَدْ يحسدها
عَلَيْهَا كَثِير من بني البَشَرِ . .

لم يَكُنْ عدم رضاها بِسَبَبِ تكبرها أو رغبتها
بِالْأَفْضَلِ . . فهذه الرفاهية لم تَكُنْ تعني لَهَا الكَثِيرِ . .
فَهِيَ تَشْعُرُ أنها سجن . قيود . . حواجز . . أشياء تحجبها
عَنِ الناس . . عن أقرانها البنات . . عن : «الشعب» .

فما قيمة الفخامة من غير حرية؟

هل يفرح طير في قفص مصنوع من ذهب، يَأْتِيهِ
الطعام بلا وني ولا تعب؟!!

وماذا لو قدمت للطير في سجنه أطيب الطعام
وأشهاها إِلَيْهِ! هل سيكتفي ويرضى؟! أم سيبقى السجن
سجناً مَهْماً تَأْنِق وتَأْلِق؟!!

ويا ترى؛ لو لمح باب قفصه مفتوحاً وإن بِشَكْلِ
موارب، هل سيدبر ظَهْرَهُ للحرية بدلاً من أن يعانقها
بحرارة وشوق شديدين، مَهْماً كان العيش في هَذِهِ



الحَيَاة قاسياً مريراً، أم سيرضى ويقنع بِهَذَا السجن
الفاره ويغضُّ الطرف عَنِ الباب المواجه، سواء أكان
مفتوحاً أم موصداً؟!!

الْحُرِّيَّةِ عِنْدَ الأحرار الحقيقيين لا تستبدل بأطنان من
الذَّهَب، ولا بقصور من العاج والفضة.. فما سمع أَحَدٌ
في روايات الخَيَال ولا في الأساطير الخرافية عن طير
عاشق لِلْفِضَاء يعيش في قفص بسقف مفتوح بِلا قيد
ولا قضبان حديد.. ولا عن أسد استمرأ العبودية
واستساغها، واستعذب الذلَّ وانقاد إِلَيْهِ.

حدثت نَفْسَهَا وَقَالَتْ:

«لا يوجد شيء مريح.. المنضدة المهملة في ركن
جانبي تلقي على الْمَكَانِ مزيداً من الغموض
والتحدي.. وَهَذَا الكرسي الأخضر يجعلني أتمنى لو
فكرت ألف مرَّة قَبْلَ أن أقرر البقاء هنا.. وحدي أنا
مقابل الطَّبِيعَةَ الافتراضية، أستلقي على فراش وثير
لا يشعرني بالراحة مطلقاً»..

رفعت الستائر ثُمَّ أسدلتها مرات ومرات . . الفضاء
مهجور كأنه مسكون بالأشباح، لَكِنَّهَا تَعْتَقِدُ أَنَّ الْأَشْبَاحَ
نَفْسَهَا هَجَرَتِ الطَّرِيقَ وَسَكَنْتِ فِضَاءَ مُخْتَلِفًا . .

«الْأَشْيَاءُ مِنْ حَوْلِي تَعْتَرِضُ، لَكِنَّهَا فِي النَّهَايَةِ
لَا تَمْلِكُ إِلَّا أَنْ تَسْتَسْلِمَ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ لَا تَسْتَسْلِمُ،
لِأَنَّ الْأَمْرَ أَشَدَّ وَطَأَةً مِنَ الْاسْتِسْلَامِ نَفْسَهُ . .

ساعة واحدة وَتَغِيبُ الشَّمْسُ . . رغم أنني لم أنتبه
أساساً إلى أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ أَشْرَقَتْ . . فَكَيْفَ تُولِدُ الشَّمْسُ
مِنْ مَغْرِبِهَا؟! الْأَشْيَاءُ مِنْ حَوْلِي تَرْتَجِفُ . . تذوب مثل
قطعة سكر في كوب ماء ساخن . . نَفْسِي لَيْسَتْ مُشْتَاقَةً
إِلَّا إِلَى الْحَرِيَةِ الْكَامِلَةِ وَشَلَالِهَا الْأَبْيَضِ» . .

تذكرت قِصَّةَ الْمَلِكِ وَالْبَبَّعَاءِ وَالشَّمْسِ الَّتِي تَرِيدُ
أَنْ تُشْرِقَ مِنَ الْمَغْرِبِ . .

«أَشْيَاءِي الصَّغِيرَةَ تَمَلَأُ الْمَكَانَ . . مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْجَارِ
الْعَمَلِاقَةِ أَمَامَ أُسْوَارِ الْقَصْرِ . . تَنْتَصِبُ شَاهِقَةً بِفَخْرٍ . .



فكل واحدة مِنْهَا لم تُكُنْ سوى بذرة صغيرة لو ضربت
بحجر لانفلقت . . أمّا اليَوْم فلا تهزها ريح . . هي أقوى
مني بكثير . . لو صارت جذعها لصرعني . . فهوَ أسمن
وأشد . . أنهكني السجن وأرهقتني الوحدة . . فيمَا تبدو
ثمراتها أئِنع وأبلغ من كُلِّ الكَلِمَاتِ .

سوف أبقى هذه الستائر مسدلة والأضواء مطفأة
إلى أن يحين موعد الحرية . .

جاري العصفور نزيل الشجرة المجاورة المزعج
نوعاً ما . . تتتابه الكوايبس . . فأنا لم أنم ساعة كاملة
مُنذُ فَتْرَةٍ، يتحدث في أنغامه لغة لا أفهمها، يصلني
صوته بلا استئذان . . لكنني في الحقيقة أريده أن يستمر
في إزعاجي . . فهوَ أنيس وحدتي مِنْ وِراءِ الأبواب
الموصدة والستائر المغلقة . .

أتخايل في وحدتي أشياء وأشياء . . وأنا على
سريري الوثير أو على كرسي الأثير . . بعد أن نسيت

شكل الشَّمْس وتدوير القمر . . ونسائم الرِّبْع وزخات
المطر . . قضيت عمري في هذا المَكَانِ . . هنا حيث
تولد الحكايا كل يوم . . ولا تنتهي . . أجلس على هذا
الكرسي أصلب نَفْسِي وأدفن قلبي . . يفهمني الكرسي
وأفهمه . . اخترته من بَيْنَ كُلِّ كراسي الأَحْلَامِ لأجلس
عَلَيْهِ وأكتب قصصي . . .

أليس عدم انتظام الشَّمْس والقمر أَفْضَل من العدم
نفسه؟! . .

تَنْظُرُ حَوَالِيهَا : «على الحائِطِ رَسْمَانِ لَا يَتَنَاقَمَانِ . .
وجه يضحك أنفه حمامة . . ووجه كئيب أنفه عصا . . بَيْنَ
الرسمين تَأَلَفٌ وَوِثَامٌ، رغم ما بَيْنَهُمَا من اختلاف وعدم
انسجام . . التقيا معاً على جدار واحد . . لم أرسمهما
أنا . . ولا سيد هذا القَصْرِ الَّذِي لَا يَأْتِي إِلَّا لِمَامًا . . جاء
مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي . . سكننا المَكَانَ مِثْلِي رغماً عَنْهُمَا،
ليصلبا على الجِدَارِ كَمَا أَنَا مصلوبة على الكرسي» . .

تأمل قليلاً ثمّ تقول: «أحد الوجهين مستاء
ومتعاطف مع كآبتي.. والثاني في عينيه مرارة حزن
ومؤاساة.. لکنه يتسم لي ليمنحني الأمل.

جدران الغرفة مثل الأحلام.. لكنني بيست منها..
وهذه النافذة المرسومة على الحائط لا تطل إلا على
الأشياء التي لا أتمناها.

لا أدري هل كان سجاني يريد أن يسعدني أم
يغمرنني ألماً عندما أحضر لي كل هذه الألوان لأرسم
بها على حوائط سجنني؟! ألم يدر أن الرسم على
الجرح يزيدُه إيلاماً؟! كأنما كان ينقضي اللون
الأحمر.. فأكثر منه ليذكّرني أن غداً لن يكون يوم
رحيلي عن هذا العالم.. وأني لن أهجر العرف كلها
التي سكنتها زمناً مملأً.. أسطّب بالوجوه بعد
رسمها.. ثم أعود إلى الكرسي الفاجر فاهه لأخضنه
أو ليحتضني.. لست أدري.

عُرِفْتِي هَذِهِ ضَيْقَةً رَغِمَ حَاجِمِهَا الْكَبِيرُ وَفَرَشِهَا
 الْوَيْبِيرِ . . أَضِيقَ مِنْ جُحْرِ فَأَرِ تَسْكُنُهُ قَبِيلَةَ فِئْرَانِ . . .
 وَأَخْشَنُ مِنْ عُشِّ عَصْفُورٍ مَصْنُوعٍ بِقَشِّ نَاشِفٍ . . وَأَيُّ
 عَصْفُورٍ أَنَا . . طَرِيُّ الْعُودِ مَكْسُورُ الْجَنَاحِ؟! لَا أَعْرِفُ
 مَوْعَدَ رَحِيلِي عَنِ هَذَا السَّجَنِ الَّذِي يَبْدُو كَأَنَّهُ سِجْنٌ
 أَبَدِيٌّ . . إِنَّهَا لَفَتْرَةٌ طَوِيلَةٌ فَضَيْتَهَا فِي هَذَا السَّجَنِ
 الْإِنْفِرَادِيَّ وَأَنْتَظِرُ الْمَزِيدَ . .

لَيْتَ بِإِمْكَانِي طَمَسَ كُلَّ مَعَالِمِ زَنْزَانَتِي الْفَارِهَةِ . .
 وَأَمْحُو كُلَّ أَثَرٍ لِي . . لَكِنِّي لَا أَمْلِكُ حَتَّى عَوْدِ
 ثِقَابٍ . . وَلَوْ مَلَكَتُهُ لِأَشْعَلْتُ بِهِ سِيْجَارَةً مِنْ وَرَقِ
 الْأَحْلَامِ . . لَكِنَّ السِّيْجَارَةَ مَضْرَّةٌ بِالصَّحَّةِ، كَمَا أَنَّهُمْ
 لَا يَسْمَحُونَ لِلْسَّجْنَاءِ بِأَنْ يَحْمِلُوا عِيدَانَ الثَّقَابِ كَيْلَا
 يُشْعِلُوا النَّارَ فِي السَّجَنِ أَوْ بِأَنْفُسِهِمْ . . مَعَ أَنِّي مُسْتَعِلَّةٌ
 بِلَا عِيدَانَ ثِقَابٍ . . وَالنَّارُ تَتَصَاعَدُ مِنْ دَاخِلِي . .
 وَتَحْرُقُنِي . . فِي كُلِّ لَيْلَةٍ . . أَتَسَاءَلُ مَتَى أُغَادِرُ

قَصْرِي .. ومتى تَنْتَهِي حِكَايَتِي .. أمْ لَعْدِ غَرْفَةٍ
أُخْرَى؟! وَكَأَنَّهَا مَكَانٌ عِقَابٍ يَنْفَذُ فِيهِ الْجَلَادُ حُكْمَهُ ..
فِي عُرْفَةِ الإِعْدَامِ» .

كَانَتْ الأَمِيرَةُ تُحَادِثُ نَفْسَهَا وَتَكْتُبُ قِصَصَهَا أَوْ
تَرْسُمُهَا عَلَى وَرَقٍ لَمَاعٍ بَرَّاقٍ .. مِثْلَ كُلِّ يَوْمٍ .
هِيَ تَخْشَى أَنْ تَبُوحَ بِمِثْلِ هَذِهِ الكَلِمَاتِ لِمُرَبِّتِهَا
حَتَّى لَا تَزِيدَهَا حُزْنَاً وَكَآبَةً، فَتَنْزِلُهَا عَلَى أَوْرَاقٍ بَيِّضَاءَ
وَمُلَوَّنَةٍ وَتَحْبِسُهَا فِي خِزَانَتِهَا الحَدِيدِيَّةِ .. فَهِيَ سَجِينَةٌ
مِثْلَهَا وَمِثْلَ قِصَصِهَا وَأفْكَارِهَا .

وَالفَارِقُ المُهِمُّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ المُرَبِّيَّةِ؛ أَنَّهَا مَسْجُونَةٌ
بِأَمْرِ أَبِيهَا أَمَّا المُرَبِّيَّةُ فَهِيَ: «مَسْجُونَةٌ مِنْ أَجْلِي أَنَا»،
تَرْفُضُ أَنْ تُعَادِرَ القُصْرَ أَوْ تَتَخَلَّى عَنِّي فِي سِجْنِهَا الَّذِي
اخْتَارْتَهُ بِمَحْضِ إِرَادَتِهَا .





الْمَشْهُدُ التَّاسِعُ

الْحُرِّيَّةُ لَا تَعْرِفُ إِلَّا سِتْسَلَامَ

الْأَمِيرَةُ الَّتِي عَاشَتْ «سَجِينَةَ» فِي هَذَا الْمَكَانِ
الْفَخْمِ مُعْظَمَ حَيَاتِهَا؛ لَيْسَتْ مِنَ النَّوْعِ الَّذِي يَسْتَسَلِمُ
وَيَنْحَنِي أَمَامَ الصُّعَابِ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ جَبَلٍ . . . كَمَا
أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ النَّوْعِ الَّذِي يَسْتَسِيغُ الْعَيْشَ وَرَاءَ الْقُيُودِ
وَالْقُضْبَانِ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ ذَهَبٍ .

هِيَ تَقْطُنُ هُنَا مُنْذُ طُفُولَتِهَا رَغْمًا عَنْهَا، بَعِيدَةً عَنِ
قَصْرِ أَبِيهَا، وَفِيمَا مَضَى مِنَ الْأَيَامِ كَانَتْ صَغِيرَةً
لَا تَسْتَطِيعُ الِاعْتِرَاضَ، أَمَّا الْآنَ فَهِيَ شَابَةٌ نَاضِجَةٌ،
غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَزَالُ تَسْكُنُ فِيهِ بِصَمْتٍ وَلَا تَعْتَرِضُ إِرْضَاءً
لِوَالِدِهَا .

وَلَا يَعْني صَمْتُهَا أَنَّهَا رَاضِيَةٌ قَانِعَةٌ بِسَجْنِهَا، فَهِيَ

مِثْلُ طَائِرٍ لَا يَهُوَى غَيْرَ الْحُرِّيَّةِ وَالْإِنْطِلَاقَ بَعِيداً عَنْ كُلِّ قَيْدٍ، لَكِنَّهَا تَأْتِي أَنْ تُغْضِبَ وَالِدَهَا وَتَتَمَرَّدَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا السَّبَبُ تَفَضَّلُ أَنْ تُطِيعَهُ وَتَنْصَاعَ لِأَمْرِهِ وَتَبْقَى مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَبْقَى فِي سِجْنِهَا وَفِي وَحْدَتِهَا . .

أُمُّهَا مَاتَتْ قَبْلَ زَمَنِ بَعِيدٍ إِثْرَ مَرَضٍ أَلَمَ بِهَا، وَكَأَنَّ الْقَدَرَ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهَا تَتَحَمَّلَ وَحْدَهَا قِيُودَ الْأَسْرِ، وَبَعْدَ أَنْ فَقَدَتْ أُمَّهَا بِبِضْعَةِ أَشْهُرٍ؛ تَزَوَّجَ وَالِدُهَا الْحَاكِمُ مِنْ امْرَأَةٍ أُخْرَى، كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا سَتَكُونُ أُمَّاً بَدِيلَةً صَالِحَةً تَرْعَاهَا مِثْلَ ابْنَتِهَا. لَكِنَّهَا كَانَتْ زَوْجَةً شَرِيْرَةً، سَحَرَتْهُ وَأَرْغَمَتْهُ عَلَى أَنْ يُبْعِدَ ابْنَتَهُ الْوَحِيدَةَ عَنْ قَصْرِ حُكْمِهِ وَسَائِرِ مُلْكِهِ.

مُنْذُ أَنْ كَانَتْ طِفْلاً لَا تَسْتَطِيعُ الدَّفَاعَ عَنْ نَفْسِهَا، وَمَعَ مُرُورِ الْأَيَّامِ اعْتَادَتْ سِجْنَهَا حَتَّى أَلْفَتْهُ، وَظَنَّتْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَقْتَصِرُ عَلَى هَذَا الْمَكَانِ . . لَكِنَّ طَبِيعَتَهَا الْعَاشِقَةَ لِلْحُرِّيَّةِ لَا تَخْضَعُ لِلْقِيُودِ وَلَا السَّلَاسِلِ وَإِنْ كَانَتْ ذَهَبِيَّةً.

كَانَ أَبُوهَا الْحَاكِمُ يَظْهَرُ فِي مَنَاسِبَاتٍ مُتَبَاعِدَةٍ،
يَأْتِي إِلَيْهَا وَيَمْكُثُ عِنْدَهَا فَتَرَةً وَجِيْزَةً، يَتَحَدَّثُ مَعَهَا
قَلِيلاً وَيَسْأَلُهَا عَن حَالِهَا وَصِحَّتِهَا وَأُمُورِهَا، يَقْدِمُ لَهَا
بَعْضَ الْهَدَايَا وَالْكَتُبِ الَّتِي غَالِباً مَا تَكُونُ نَوْعاً مِّنَ
الْقِصَصِ وَالرُّوَايَاتِ الْخَيَالِيَّةِ، يَزُورُهَا بِغَيْرِ انْتِظَامٍ،
مُظْمَئاً عَلَيْهَا، ثُمَّ يَرَحُلُ كَمَا جَاءَ عَلَى عَجَلٍ، أَمَّا هِيَ
فَتَرْجُوهُ أَنْ يَبْقَى وَلَوْ قَلِيلاً . . فَيَعِدُّهَا بِالْعُودَةِ خِلَالَ فَتْرَةٍ
قَصِيرَةٍ . . لَكِنَّهُ يَذْهَبُ وَلَا يَعُودُ إِلَّا بَعْدَ مُضِيِّ وَقْتٍ
طَوِيلٍ مِّنَ الزَّمَنِ .

لَمْ يَكُنْ أَبُوهَا الْحَاكِمُ يَسْمَحُ لَهَا بِأَنْ تُغَادِرَ قَصْرَهَا
الْمَعزُولَ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْعُوها لِكِي تَذْهَبَ إِلَيْهِ وَتَرْوِرُهُ فِي
قَصْرِ حُكْمِهِ الْعَامِرِ . . فَزَوَّجَتْهُ الشَّرِيبَةَ تَابِي ذَلِكَ، فَهِيَ
الَّتِي طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يُقْصِي ابْنَتَهُ وَيَعزِلَهَا، حَتَّى تَتَفَرَّدَ
بِالْحُكْمِ وَلَا يُشَارِكَهَا فِي قَصْرِ زَوْجِهَا أَحَدٌ، وَلَمْ تَكْتَفِ
بِذَلِكَ، بَلْ أَرْغَمَتْهُ عَلَى أَنْ يُسْكِنَهَا فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ جِدًّا

عن قَصْرِهِ فِي أَطْرَافِ مُلْكِهِ، بَعِيداً عَنِ النَّاسِ جَمِيعاً،
وَأَلَّا يَسْمَحَ لَهَا بِدُخُولِ قَصْرِ الْحُكْمِ، وَلَا حَتَّىٰ بِالسَّكَنِ
دَاخِلَ الْمَدِينَةِ، وَلَا فِي مَدِينَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ قَرِيبَةٍ.

كَمَا أَنَّ أَبَاهَا الْحَاكِمَ، مَا إِنْ كَبُرَتْ ابْنَتُهُ قَلِيلاً
وَأَصْبَحَتْ شَابَةً وَبَدَتْ عَلَيْهَا أَمَارَاتُ النَّبَاهَةِ وَالذِّكَاةِ؛
حَتَّىٰ صَارَ يَخْشَىٰ أَنْ تَتَوَاصَلَ مَعَ شَعْبِهِ فَتَكْتَشِفَ ظُلْمَهُ
وَبَطْشَهُ. . . فَبَعْدَ أَنْ كَانَ حَاكِماً عَادِلاً يُحِبُّ شَعْبَهُ،
وَشَعْبُهُ يُحِبُّهُ، تَغَيَّرَ حَالُهُ وَأَصْبَحَ حَاكِماً ظَالِماً لَا يَعْرِفُ
الْعَدْلَ وَلَا الرَّحْمَةَ عَقِبَ زَوَاجِهِ مِنْ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الشَّرِيرَةِ
الَّتِي اسْتَخْدَمَتْ كُلَّ مَا تَعْرِفُهُ مِنْ حَيْلِ السَّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ
لِلسَّيْطَرَةِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ كُلِّ مَا لَدَيْهِ مِنْ سُلْطَانٍ، لِحُكْمِ
الشَّعْبِ وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَى الثَّرْوَةِ.

كَانَ الْحَاكِمُ مِنْ فِرْطِ تَأْثِيرِ السَّحْرِ عَلَيْهِ يَظُنُّ أَنَّ مِنْ
«الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ» أَنْ تَظَلَّ ابْنَتُهُ فِي قَصْرِهَا - أَوْ فِي
سَجْنِهَا لَا فَرْقَ - بَعِيداً عَنِ النَّاسِ، فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ أَفْرَادَ

شعبه باتوا يكرهونه أشد الكراهية، ويخشى أن ينتقموا منه بأن يؤذوا ابنته الوحيدة، فضلاً عن خشيته الشديدة بأن تنكشف صورته الحقيقية أمامها، وأن تعلم منهم الواقع الذي تجهله عن أبيها، فهي تعتقد أنه حاكم عادل نزيه، يحبُّ شعبه وشعبه يحبُّه.. وهذا بالطبع نقيض للواقع..

وهي الحقيقة المرة التي يخفيها خلف ألف قناع وقناع.. فقد كانت بقايا الخير لا تزال تشع من أعماقه، ولولا ذلك لفضى على ابنته الوحيدة منذ زمن طويل كما طلبت منه زوجته الشريرة مراراً وتكراراً، لكن مشاعر الأبوة بقيت راسخة، وبالرغم من اجتهاد الساحرة فيما بذلته من شرور، فإن كل محاولاتها بالتخلص منها والقضاء عليها لم تجد نفعاً.

والأميرة الصغيرة من شدة حبها لأبيها وما كان يديه لها من رعاية واهتمام كانت تعتقد أن أباه رجل

طيب القلب رهيف المشاعر، فهو يبذل قصارى جهده
لكي يبدو أمامها لطيفا حنوناً، بالرغم من سجنه لها
في هذا القصر الفسيح الفخم.

لكنّها كانت تعلم من ناحية ثانية مدى قسوة قلب
زوجة أبيها، وتجزم أنها هي وحدها السبب في قيام
أبيها بسجنها في هذا المكان الوثير.. ولم تكن لتظن
يوماً أن وجه أبيها الهادئ الوقور مجرد قناع رقيق
لوجه آخر يعرفه الرعية كلهم.. إلا أنه يخفى عنها
وحدها.

كان الحاكم الظالم يحاذر من أن تعرف ابنته
أخباره حتى لا تكتشف أعماله الشريرة..

كان حريصاً أشد الحرص على أن يبدو أمامها
على هذه الهيئة الطيبة الحسنة، ويبذل جهده لكيلا
تصل إليها الأنباء السيئة، وما يفعله بشعبه من ظلم
وعدوان.

أبعدها عن عاصمة حكمه . . أسكنها قَصْرًا فسيحاً
 في منطقة نائية معزولة، لا ينقصها شيء ولا تحتاج إلى
 أحد . . ومنعها من التواصل مَعَ أحد.

لم تُكُنْ وسائل التواصل متوفرة أمام الأُمِيرَةَ، كما
 لم يُكُنْ انتقال الأخبار إِلَيْهَا أمراً ميسوراً . .

ولولا بَعْضُ الكُتُبِ الَّتِي تصلها وتشغل نَفْسَهَا
 بقِرَاءَتِهَا مَرَّةً تلو المَرَّةِ ولا تدع سطرًا مِنْهَا دُونَ قِرَاءَةِ
 متكررة . . ولولا وجود المُرَبِّيَّةِ الَّتِي تحادثها وتكلمها
 وتعلمها، لنشأت صفحة بيضاء لا تعلم عن أُمُورِ الدُّنْيَا
 شَيْئًا .





المشهد العاشر

قَوَانِينُ ظَالِمَةٍ مُظْلِمَةٍ

الْحَاكِمُ كَانَ مَرهُوباً عِنْدَ عَامَةِ الشَّعْبِ، لَا يَجْرَأُ
شَخْصٌ، مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُ، عَلَى مَخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ
وَقَوَانِينِهِ الظَّالِمَةِ الْمُظْلِمَةِ الصَّارِمَةِ..

يَأْمُرُ فِيطَاعَ.. يَظْلِمُ فِيهَا.. وَمَنْ يِعَارِضُهُ يَكْبَلُهُ
بِالْحَدِيدِ، وَيَكْوِيهِ بِالنَّارِ.. ثُمَّ يَرْسِلُهُ إِلَى السَّجْنِ لِيَقْضِيَ
مَا تَبَقِيَ مِنْ عَمْرِهِ فِي سَرَادِيبِ النِّسْيَانِ الْمُظْلِمَةِ،
وَالْأَمَاكِنِ الرُّطْبَةِ الْعَفْنَةِ، يَنْدُبُ حِظَّهُ وَيَدْعُو اللَّهَ أَنْ
يَخْلُصَهُ مِمَّا وَقَعَ عَلَيْهِ مِنْ ظُلْمٍ.

شَعْبُهُ يَخَافُ ظُلْمَهُ وَيَخْشَى بَطْشَهُ، وَمَعَ خَوْفِهِ
وَخَشْيَتِهِ يَنْقَسِمُ إِلَى فِرْقٍ مُتَبَايِنَةٍ فِي الْمَوَاقِفِ، كُلٌّ مِنْهَا

يختلف عَنِ الآخر بطريقة تعامله مَعَ الوَاقِعِ، وَإِن كَانُوا
جَمِيعاً متفقين على أَنَّهُ حَاكِمٌ ظالمٌ .

أقربهم إليه مودة فرقة المداحين . . المنتفعين
المنافقين . . ولأمثالهم قِصَصٌ مَعَ كُلِّ سلطان جائر،
فهم أشباه ونظائر، في كُلِّ الأزمان والأقطار
والأمصار . . أفرادها من فُتاتهِ يتكسَّبون، ومن ظلمه
يقتاتون، لا يشبعون من نهمهم ولا يكتفون . .

لا يهتمون إلا بأنفسهم وبالمناصب وبالمكاسب
الَّتِي يجنون، سواء أكَانَتْ مَالاً أَوْ جَاهاً سلطاناً . .

على أي حال وَدُونَ حساب يمدحونه، ويباركون
لَهُ فعلة مَهْمَا كان ويعظمونه . . ويشجعونه على المضي
أَكْثَرَ فأكثر في طريق الغيِّ والضلال . . ويتغزلون في
دمامة أعماله وقباحة أفعاله .

هم أَكْثَرَ الناس بغضاً لَهُ وكراهية، لَكِنَّهُم اعتادوا
على أَن يَمَلَأُ خزائنتهم بِالْعَطَايا والهدايا والهبات، جزاء

مشاركتهم إياه في الظلم والجبروت، فتلطّخت أيديهم
بالدماء الزكية، وتمرغت كراماتهم بالأوحال الرزية .

يَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ الْحَاكِمِ وينكرونها . . يكتمون
مشاعرهم الدفينة ويزورونها على غَيْرِ وَاقِعِهَا؛ لتحقيق
غاياتهم الدنيئة ومآربهم الدفينة . .

وفي أحيان كثيرة يتلقون الأوامر من زوجته
الشَّرِيرة مُبَاشَرَةً، ولا يعبؤون كثيراً بما يطلب مِنْهُمْ إِذَا
كَانَتْ أوامرها تخالف أوامره، فهم أَدْرَكُوا مُنْذُ زَمَنٍ
أَنَّهَا الْحَاكِمُ الفعلي، وأن زوجها مُجَرَّدُ دمية بَيْنَ
يديها، تلهو بِهَا وتحركها كَيْفَمَا تَشَاءُ ومتى تَشَاءُ . .

بَعْضُ رجال السلطة لم يذعنوا في البداية لتحوُّل
الْحَاكِمِ المُفاجئ وغير المُبرر؛ من العدل إلى الظلم،
ومن الخَيْرِ إلى الشر، أنكروا انقلابه على نَفْسِهِ بَعْدَ
زواجه الثاني مُبَاشَرَةً . .

مِنْهُمْ من حاول نصحه وردعه عَمَّا يَاقِدُ عَلَيْهِ من

ظلم وعدوان، فهَدَّدهم ونزع مِنْهُم سلطاتهم، وقبض على بَعْضهم، واحتجز آخرين في دياجير السجون..
ومِنْهُم من خضع سريعاً إما بتأثيرِ السحر أو بتأثيرِ
الْمال والسلطة..

وهُنَاكَ من خاف على نَفْسِهِ وأولاده، وَقَرَّرَ التعامل
مَعَ الْوَأَقِيعِ الْمَسْتَجِدِّ على مضض وبحذر شديد حتى
لا يتضرر، فِيمَا آثر آخرون العزلة والوحدة في بيوتهم
زهداً بِالْمَالِ وبالسلطة.

وَمِنَ النَّاسِ من نصر الْحَاكِمِ وأيده ظالماً
وَمَظْلُوماً، يعظّمون أمره ويفعلون ما يأمرون، بلا حول
مِنْهُم ولا قوة.. كَانَتْهُمُ آلات دُونَ عَقْلِ وَلَا تَفْكِيرٍ..
مِنْهُم من كان يعمل بِالْجَيْشِ والأمن والإدارة قَبْلَ أَنْ
يَتَزَوَّجَ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الشَّرِيرة.. لم يفاجئهم ما حدث لَهُ
من تغير طارئ.. فهم يخضعون لَهُ بِكُلِّ شاردة
وواردة.. ينفذ جرائمه بواسطتهم.



وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى فِي ذَلِكَ خَطَأً جَسِيماً وَجَرماً
عظيماً، لَكِنَّهُمْ كَانُوا يَطِيعُونَهُ طَاعَةَ الْعَمِيَانِ،
لَا يَسْتَطِيعُونَ الرِّفْضَ، يَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَسْرِهِمْ
مِنْ بَطْشِهِ وَظَلْمِهِ، يَحَاوِلُونَ أَحْيَاناً تَلَطِيفَ تَنْفِيزِ
الْأَحْكَامِ الظَّالِمَةِ وَتَخْفِيفِهَا عَنِ النَّاسِ . . رَغْمَ أَنَّهُمْ
يَعْلَمُونَ أَنَّ الْحَاكِمَ إِذَا اكْتَشَفَ عَمَلًا طَيِّبًا لِعَامِلٍ مِنْهُمْ؛
سَجَنَهُ وَعَذَبَهُ، وَرُبَّمَا قَتَلَهُ دُونَ رَحْمَةٍ وَلَا شَفِيقَةٍ .

هَؤُلَاءِ هُمُ الْأَدَاةُ الْقَاسِيَّةُ وَالْعَصَا الْغَلِيظَةُ الَّتِي
يَفْرُضُ فِيهَا حُكْمَهُ عَلَى شَعْبِهِ . . يَبْطِشُ بِيَدٍ مِنْ
حَدِيدٍ . . فَهَمُ طَائِعُونَ صَاغِرُونَ، لَا يَعْتَرِضُونَ، كَأَنَّهُمْ
آلَاتٌ تَيْسِرُ بِهَا تَوْقِفَ، تَسْتَجِيبُ لِلْأَوْامِرِ بِإِلَاقَةِ تَفْكِيرٍ .

الْبَعْضُ مِنْهُمْ شَدِيدُ الْحِمَاسَةِ وَالْإِخْلَاصِ لِلْحَاكِمِ،
يُؤْمِنُونَ بِمَا يُؤْمِنُ، وَيَعْتَقِدُونَ بِمَا يَعْتَقِدُ . . تَوَقَّفَتْ
التَّطَوُّرُ الْعَقْلِيَّ عِنْدَهُمْ، فَبَاتَتْ تَطَلُّعَاتُهُمْ كُلُّهَا مَحْضُورَةً
فِي شَخْصِ الْحَاكِمِ لَا سِوَاهُ . . هُمُ مُسْتَعِدُّونَ لِلْقِتَالِ

بِكُلِّ ضراوة من أَجْلِهِ حتى الموت . . وحتى دون حتى
أَنْ يَعْرِفُوا ما سبب القتال وما سبب الموت . . إنه
جنون مطبق . . بلا عَقْل ولا منطق .

وهُنَاكَ قسم محايدون تَمَاماً، لا يصدر عَنْهُمْ همز
ولا لمز، بالسِرِّ أو بِالْهَمْسِ، سلباً ولا إيجاباً . .
يتجنبون الاطلاع على تَفَاصِيلِ وعموميات ما يجري
حَوْلَهُمْ من مآسٍ وويلات، يفضلون الحَيَاةَ البكماء
الصماء العمياء، لا يُسمع مِنْهُمْ حرف لهُ علاقة بقضايا
الناس، وبخاصة ما يتعلق بِالْحَاكِمِ وأفعاله .

يغضون الطَّرْفَ عن فضائله القَلِيلَةَ - إن وجدت -
وجرائمه الكَثِيرَةَ - وإن عمّت - كَأَنَّهُمْ في وادٍ والعالم
كله في وادٍ آخر . . يفضلون كل شيء بَعِيدٍ عن سلطانه.
يعملون بِالْحِرْفِ اليدوية والتجارة البسيطة . . يحاولون
تجاهل ما يجري حَوْلَهُمْ، صَمٌّ بكم عمي، فهم في
حيرة من أمرهم وتردّد، لا يدرون ماذا يفعلون . .



وهُنَاكَ قَلَّةٌ قَلِيلَةٌ جَدًّا كَانُوا «يتجرؤون» فيدعون ربهم - في أعماق سرهم - في الليالي الكالحات، ليخلصهم ممَّا هم واقعون فيه . .

وهم في الحَقِيقَةِ لا يفعلون شيئاً . . لا شيء بالمرَّة . . باستثناء الدعاء .

لم تكنْ جرأتهم كافية لكي يقوموا بأي أمر إيجابي أكثر من الدعاء، حتى إنهم كانوا لا يتكلمون في مجالسهم الخاصة، ومن خلف أبواب مغلقة، بأدنى أمر يتعلق بظلم الحاكم وشؤون زوجته وحاشيته، حتى مع أزواجهم وأبنائهم وبناتهم، حذراً ورهبة، وتجنباً لأي خطر محتمل .

لا شك أنَّ الدعاء مَطلُوبٌ، غَيْرَ أَنَّ الدعاء وحده لا يفي بالغرض، ولا يأتي بِكُلِّ ما هو مرغوب، لِذَا يَجِبُ ألا يتوقَّف الإنسانُ عنده فحسب، فلا ينهض أمر دُونَ عمل وكد وبذل لِلجهد والنشاط بأمل ورغبة، فَمَنْ

يدعو الله لتحقيق غايته ولا يفعل شيئاً؛ يَكُونُ كمن يزرع
الأرض اليباس ولا يسقي أرضه حتى يرتوي زرعه .

فهل يستوي الَّذِينَ يعملون وَالَّذِينَ لا يعملون؟

أم هل يستوي الَّذِينَ يزرعون ثُمَّ يسقون وَالَّذِينَ

يزرعون ولا يسقون؟؟!!

ومثلهم بالطَّبْع من يُتبعون الدعاء بِالْعَمَلِ ، بشرط
ألا يغامروا بحَيَاتهم وألا يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة ،
لأنَّ الْحِكْمَةَ تَبْقَى ضالّة الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ الْعَاقِلِ فِي كُلِّ
حال وحين .

أما التسرُّع والتهاون فمصيرهما مشترك ، وغالباً
ما يَكُونُ غَيْرَ محمود ، فهُنَاكَ بون شاسع ما بَيْنَ الجرأة
والتهوُّر ، وما بَيْنَ الرغبة بِالْإِصْلَاحِ بِالْحِكْمَةِ والجنوح
نحو الهاوية بلا إبطاء ولا تبصر .

وهُنَاكَ قسم رَأَى الْأُمُور بِشَكْلِ مُخْتَلِفٍ عَنْ كُلِّ
الأقسام السابقة . . كان متمرداً بشِدَّة ، رافضاً بقوة ،

معتزلاً على كُلِّ ما يصدر عَنِ الْحَاكِمِ من أفعال منكرة
شريرة..

وضمَّ هذا القسم: أدباء وعلماء، مفكرين
وفنانين، معلمين وحرفيين، ومقاتلين محترفين..
وأفراد بسطاء من عامة الشعب.

كأن قدر الْحَاكِمِ الظالم ألا يرضى بظلمه
المحكوم، وَإِنْ كَانَ الْمُظْلَمُونَ كَثَرًا والمتمردون على
الظلم قلة.. وَقَدْ يستمر الظلم ردحاً طويلاً من الزمن،
وقَدْ يموت الظالم ويبقى الْمُظْلُومُ مَظْلُومًا إِلَى أَنْ
يَنكشِفَ الظلم، وَقَدْ يموت كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ تَحْتَ سِيفِ
الظالم، إِلَى أَنْ تتحقق إِرَادَةُ اللَّهِ؛ فيلقى الرد على
ظلمه فِي الدُّنْيَا.. أو يؤخر لَهُ فيلقاه فِي الآخرة..

ومن يعِ يُدْرِكُ من رَدِّ الدُّنْيَا ما يخفى عَنْهُ من رد
الآخرة.. ولا يستويان.

لكن عِنْدَمَا تضعف الرُّؤْيَةُ فَإِنَّ الظالم يَرَى الوَاقِعَ

كَمَا يَشْتَهِيهِ ، وَإِنْ كَانَ نَقِيضاً لِلْحَقِيقَةِ .. وَيَصَابُ غَالِباً
بشياء لا يفقهه كثير من الناس ، كونهم لم يذوقوا
جنون العظمة ، لحرص منهم أو لعدم وجود فرصة ،
فيتصلب الرأي ويشتدُّ الظلم حتى الرمق الأخير ..





المشهد الحادي عشر

مجموعات المقاومة

بعض المقاومين المتمردين دخلوا المعتقلات . .
منهم عذب حتى مات . . ومنهم من هاجر إلى بلاد
غريبة بعيدة يحاولون كشف ظلمه للعالم كي
يساعدوهم على الخلاص منه .

وبعضهم لجأ إلى الجبال والوديان والقيعان؛ فراراً
من الظلم والعدوان، حتى لا ينالهم من الأذى والظلم
والإبادة كما نال كثير ممن رفض ظلمه . .

وبعد فترة انتظم بعضهم وتجمعوا في مجموعات
ناقشوا همومهم . . وبحثوا شجونهم . . من ذهب إلى
الخارج ومن لجأ إلى القفار البعيدة . . وقرروا بعد فترة

مقاومة الْحَاكِمِ وشروره بِكُلِّ الوسائلِ الْمُمْكِنَةِ وَمِنْهَا:
مقاومته بالسلاح . .

صار بَعْضُ الْمُقاومينِ يهاجمون جنوده وقوافله،
يستولون على ما في هَذِهِ القوافلِ من سلاح ومعدات
وتموين غذائي مُتَنَوِّع. كان هُوَلاءِ الْمُقاومينِ أَشدَّهم
إزعاجاً لِلْحَاكِمِ وزوجته، يثيرون غضبهما وحقنهما،
فيصدران الأوامر الصارمة بِاسْتِخْدَامِ كُلِّ أسلَيبِ البطش
والقوة لِلقضاءِ عَلَيْهِمِ . . ومع ذَلِكَ كانتِ أعدادهم تزداد
ولا تنقص . . وإمكانياتهم تقوى ولا تضعف .

الْأُمِيرَةُ الصَّغِيرَةُ الجميلة لم تُكُنْ تعرف عن ذَلِكَ
شَيْئاً، حَيَاتُهَا كانتِ تمضي بِشَكلٍ هادئٍ رتيب، تقرأ
الْكَتُبَ الْكَثِيرَةَ الْمُتَنَوِّعَةَ، تمارس هواياتها الْمُسْلِمِيَّةَ . .
ترسم لوحات طبيعية جميلة . . تلعب بِالْعابِها الْفَرِيدَةِ
الَّتِي أَحضرها لَهَا والدها من أنحاء متفرقة من العالم،
تشدو مَعَ الْبَلابلِ والحساسين، تَعِيشُ مَعَ الطَّبِيعَةِ



الجميلة؛ تتنسم عبير الورد والرياحين.. تعانق
الأشجار وتقطف الثمار.. تلهو وتلعب..

الحياة بالنسبة لها عالم آخر، غير ذلك العالم
الذي يعيش فيه الشعب.. عالم مستقل.. لا جراح
فيه ولا آلام.. لا جوع فيه ولا مرض.. أما المربية
الطيبة القلب فكانت تعرف كل شيء؛ تتألم لما يحدث
للشعب، تتجنب قسوة الحاكم وظلمه، تعلم أنه طيب
القلب لكنه منذ تزوج تلك المرأة الشريرة أصبح قلباً
قاسياً، يعامل الناس دون رحمة.. لا يعبأ بالآلام
الناس، يسعى لإرضاء زوجته الشريرة وغروره وحرصه
على المال والسلطة، وصار يحتقر الناس جميعاً،
ويظن من سحر زوجته أنه لو أرخى قبضته عن الشعب
لأنتهى سلطانه واضمحل.

المربية تعلم أن الحاكم أوى إليه اللصوص
والمجرمين.. لم يكن هكذا في السابق قبل أن تموت

زوجته الأولى ويتزوج تلك المرأة الشريرة الساحرة،
 سيطرت عليه أولاً ثم استولت على الحكم، فكان هو
 حاكماً في الظاهر وهي المسيطرة في الخفاء..
 وعضاً عن أن يُبقي المجرمين في السجون التي بُنيت
 لهم ولأمثالهم، أطلقهم وقربهم إليه، وأسند إليهم
 أرفع وأهم المناصب..

قاطع الطريق أصبح مسؤولاً عن الأمن فيما هو في
 الحقيقة لا يؤتمن على بيته..

وعدو العلم أصبح مشرفاً على المدارس والتعليم،
 وهو لا يفقه من العلوم شيئاً، حتى إنه يكاد لا يعرف
 كيف يكتب اسمه.

أمّا المشرف على الثقافة فلا هم له سوى إقناع
 الشعب بالخضوع للحاكم..

وهكذا منح المجرمين مناصب لا يليقون بها
 ولا تليق بهم، فعاشوا في نعيم لا يحلمون به، فيما

ذاق أفراد شعبه الطيب البؤس البالغ والشقاء الشديد،
وسقطوا في قلب دوامة من العذاب لا يعرفون كيف
ومتى يأتي الوقت الذي يخرجون فيه منها.

المُرَبِّيَّةُ نِعْمَةٌ اللهُ كَانَتْ امْرَأَةً طَيِّبَةً فَاضِلَةً، وَهِيَ
تَعْرِفُ هَذِهِ الْأُمُورَ كُلَّهَا، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهَا مِنْهَا خَافِيَةٌ،
بَلْ هِيَ تَعْلَمُ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، لَكِنَّهَا
تُحِبُّ الْأَمِيرَةَ الصَّغِيرَةَ وَتَخْشَى عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ ضَرَرٍ قَدْ
يَلْحَقُ بِهَا، وَلَا تَتَخَيَّلُ نَفْسَهَا بَعِيدَةً عَنْهَا لِيَوْمٍ أَوْ سَاعَةٍ،
فَهِيَ وَلَدَتْ عَلَى يَدَيْهَا . . وَلَا تَسْتَطِيعُ مَفَارِقَتَهَا لِحِظَّةٍ
وَاحِدَةً . .

لم توافق المُرَبِّيَّةُ يَوْمًا عَلَى مَا يَفْعَلُهُ الْحَاكِمُ مُنْذُ
زَوَاجِهِ الْأَخِيرِ . . كَانَتْ قَوِيَّةً مَقْرَبَةً مِنْهُ وَمِنْ أَرْمَلَتِهِ الَّتِي
مَاتَتْ وَهِيَ لَا تَزَالُ شَابَّةً، لَكِنَّهَا الْيَوْمَ ضَعِيفَةٌ مَكْسُورَةٌ
الْجَنَاحِ . . لَا تَجْرُؤُ حَتَّى عَلَى النَّظْرِ فِي عَيْنَيْهِ . .

هي الآن شديدة الحرص على البقاء برفقة الأميرة

الصَّغِيرَةَ، وتخشى أن يبعدها الْحَاكِمُ عَنْهَا إِذَا تَفَوَّهَتْ
بِأَيِّ كَلِمَةٍ لَا تُعْجِبُهُ، لِذَا فَهِيَ تَظَلُّ صَامِتَةً أَمَامَهُ عَلَى
الدَّوَامِ . . كَمَا أَنَّهَا تَخْشَى أَنْ تَكْتَشِفَ الْأَمِيرَةَ الصَّغِيرَةَ
فِيمَا يَأْتِي مِنَ الْأَيَّامِ ظَلَمَ أَبِيهَا، فَتَنهَارِ عِنْدَمَا تَعْلَمُ
حَقِيقَةَ وَاقِعِهِ الْمَخِيفِ .

الْأَمِيرَةُ لَا تَزَالُ فِي رِيعَانِ الصُّبَا، طَيِّبَةَ الْقَلْبِ
رَقِيقَةَ الْمَشَاعِرِ، لَا تَعْرِفُ الْبَغْضَ وَلَا الْكِرَاهِيَةَ،
وَتَرْفُضُ ظَلَمَ الْآخِرِينَ تَحْتَ أَيِّ مَبْرَرٍ وَذَرِيعَةٍ، حَتَّى
الْحَشْرَاتِ الصَّغِيرَةَ لَا تُحِبُّ أَنْ تُؤْذِيَهَا، فَإِذَا رَأَتْ نَمْلَةً
ضَعِيفَةً تَمْشِي ببطءٍ فِي حَدِيقَةِ قَصْرِهَا، تَتْرُكُهَا تَمْضِي
بِسَلَامٍ وَلَا تَزْعُجُهَا . . فَكَيْفَ بِهَا إِذَا عَلِمَتْ بِمَا يَفْعَلُ
أَبُوهَا وَبِكُلِّ ذَلِكَ السُّوءِ الَّذِي يَنْشُرُهُ فِي أَنْحَاءِ مُلْكِهِ،
قَدْ تَصَابُ بِصَدْمَةٍ شَدِيدَةٍ . . وَرُبَّمَا سَقَطَتْ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا
مِنْ هَوْلِ الصَّدْمَةِ .

وَهَلْ هُنَالِكَ صَدْمَةٌ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ نَكْتَشِفَ حَقِيقَةَ مَنْ



نحبُّ؟! الحَقِيقَةُ الَّتِي قَدْ تَكُونُ فِي شَكْلِ مُخْتَلِفٍ تَمَاماً
عَمَّا كُنَّا نَعْتَقِدُ.

وفي المقابل؛ لم تكن الأميرة الصغيرة الطيبة
القلب سعيدة بحياتها، رغم كل ما يحيط بها من فخامة
و ثراء.. فكل هذا لا يعني لها شيئاً.

تَشْعُرُ أَنَّهَا لَا تَعِيشُ عَيْشَةً طَبِيعِيَّةً سَوِيَّةً، تُرِيدُ أَنْ
تَكُونَ مَعَ أَبِيهَا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ.. وَكُلَّمَا رَأَتْهُ سَأَلَتْهُ عَنِ
سَبَبِ نَدْرَةِ زِيَارَتِهِ لَهَا، وَعَنِ سَبَبِ عَزَلَتِهَا وَوَحْدَتِهَا،
ثُمَّ تَرْجُوهُ أَنْ يَأْخُذَهَا مَعَهُ.. وَكَانَتْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ
تَسْمَعُ مِنْهُ جَوَاباً وَحِيداً لَطِيفاً، يَخْتَلِفُ تَمَاماً عَنِ
أَسْلُوبِهِ الَّذِي يَتَّبِعُهُ مَعَ الْآخَرِينَ.

يَقُولُ لَهَا: «هَذَا الْمَكَانُ مَجْهُزٌ بِكُلِّ مَا تَرَعَيْنَ فِيهِ،
أَنَا أَخْشَى عَلَيْكَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَمِنْ حَيَاةِ الْمَدِينَةِ.. فَقَدْ
تَتَعَرَّضِينَ لِلْأَخْطَارِ الَّتِي تَحِيطُ بِي، أَعْدَاءُ الْحَاكِمِ
وَحُسَّادِهِ كَثِيرُونَ.. كَمَا أَنَّ الْمَدِينَةَ مَلِيئَةٌ بِالْعَمَالِ

والجنود، كما أنها عامرة باللصوص والأشرار،
والمصانع والضجيج.. فلماذا نزعجك بكل هذا؟».

كَانَتْ تَظُنُّ أَنَّ الأَعْدَاءَ الَّذِينَ يَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ أَبُوهَا
هُمُ الأَشْرَارُ الَّذِينَ تَقْرَأُ عَنْهُمْ فِي القِصَصِ.. وَكَانَتْ
تَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الأِنْقِلَابَ عَلَى الحُكْمِ وَقَتْلَ أَبِيهَا
وَالسَّيْطَرَةَ عَلَى البِلَادِ.

الأَمِيرَةُ قَلْبُهَا طَيِّبٌ، كَانَتْ تَصَدِّقُ أَبَاهَا وَتَقْتَنِعُ
بِكُلِّ كَلِمَةٍ يَقُولُهَا وَبِسُرْعَةٍ دُونَ مُنَاقَشَةٍ، وَعِنْدَمَا يَعُودُ
أَبُوهَا إِلَى المَدِينَةِ وَيَتْرُكُهَا وَحِيدَةً فِي قَصْرِهَا تَعُودُ هِيَ
إِلَى وَحْدَتِهَا، وَيُصْبِحُ القَصْرُ الضَّخْمُ الرَّائِعُ سَجْنًا
يَضِيقُ بِهِ صَدْرُهَا، بِالرَّغْمِ مِنْ رُوعَةِ صُنْعِهِ وَثَرَاءِ أَثَائِهِ،
وَمَا يَحْتَوِيهِ مِنْ وَسَائِلِ الرَّاحَةِ وَالتَّسْلِيَةِ وَالتَّرْفِيهِ.

لَمْ تَكُنِ الأَمِيرَةُ الصَّغِيرَةُ تَسْتَطِيعُ النُّومَ بِسُهُولَةٍ..
بَلْ كَانَتْ تَطِيلُ السَّهْرَ مَعْظَمَ اللَّيَالِي بَعْدَ أَنْ تَأْوِي
مُرَبَّتِهَا إِلَى فِرَاشِهَا.



وفي بَعْضِ الليالي الجميلةِ المُقمرَةِ تجلسُ تراقبُ
ضوءَ القمرِ .. تتأملُ السكونَ والنجومَ .. تُفكِّرُ بما
يجري في حَيَاتِهَا، فتبدو وكأنَّهَا تحملُ أطناناً من
الهمومِ.

«هل سأظلُّ في هَذِهِ الوحدةِ طوالِ عُمرِي .. لا أخ
ولا أخت، لا صديقة، بلا زوج ولا ولد؟».

صارتُ تحلمُ بفارسٍ يَأْتِي من بَعِيدٍ يحملها على
حصانه الأبيضِ، يخطفها من هذا القَصْرِ، لتعيشَ بَيْنَ
الناسِ؛ حَيَاةً طَبِيعِيَّةً، ولو في بيتٍ فقيرٍ، أو كوخٍ من
خشبٍ، تَعِيشُ ببَسَاطَةٍ .. نعم ببَسَاطَةٍ .. ولو أكلتُ
خبزاً يابساً .. وقرصها الجوعُ والبردُ ..

مسكينةً، كم هيَ طَيِّبَةُ القلبِ، ما أدري هَذِهِ
الأميرةَ بقرصاتِ الجوعِ والبردِ؟!!

وهَلْ ذاقَتْ يوماً طعمَ الألمِ والتَّشَرُّدِ والظُّلمِ؟!!





الْمَشْهُدُ الثَّانِي عَشَرَ

سَجْنٌ لَا خَلَاصَ مِنْهُ

كَانَ قَلْبُهَا صَافِيًا بِنِقَاءٍ .. عَذْبًا مِثْلَ الْمَاءِ .. يَرُدُّ
مَعَهَا : « كَرِهْتُ الْقَصْرَ .. كَرِهْتُ الْحَيَاةَ .. آه لَوْ تَتَحَقَّقُ
أَمْنِيَّتِي وَأَعِيشُ فِي كَوْخٍ بَسِيطٍ .. فِي أَسْرَةٍ فَلَاحٍ فَقِيرٍ ..
بَدَلًا مِنْ كُلِّ هَذَا الشَّرَاءِ ، وَهَذِهِ الْحَيَاةُ الْمُرِيرَةُ بِسَخَاءٍ ..
أَشْعُرُ أَنَّنِي فِي سَجْنٍ لَا خَلَاصَ مِنْهُ وَلَا انْتِهَاءً » .
لَمْ تَعُدْ تَشْبَعُهَا الرُّوَايَاتُ وَالْقِصَصُ ..
لَمْ تَعُدِ الْأَحْلَامُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي فِي كِيَانِهَا تَكْتَفِي بِأَنْ
تُكُونَ مُجَرَّدَ كَلِمَاتٍ تَنْسُجُهَا عَطْرًا عَلَى وَرْقٍ ..
طَافَ فِي رَأْسِ الْأَمِيرَةِ الْجَمِيلَةِ كَثِيرٌ مِنْ
الْأَحْلَامِ .. خَطَّتْ عَلَى دِفَاتِرِهَا وَأَوْرَاقِهَا « كَلِمَاتٌ
لَيْسَتْ كَالْكَلِمَاتِ » ..

«الْحُرِّيَّةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ كَلِمَاتٍ مُشْرِقَاتٍ حَسَانٍ،
 كَعَقْدِ لَوْلُؤِيٍّ بَاهِرِ الْأَلْوَانِ، كَنَظْمِ شَاعِرٍ مَلْهَمٍ فَنَانٍ،
 وَلَيْسَتْ فَقَطِ شَلَالِ نَعْمٍ بِأَنَامِلِ صَائِعِ الْأَلْحَانِ، يَغْزُلُهَا
 لِحْنًا لِحْنًا، بِأَوْتَارِ عَوْدِهِ الذَّهَبِيِّ الرَّنَانِ.. إِنَّهَا بِطَعْمِ
 الْكَرْزِ.. بِلَوْنِهِ الْفَتَّانِ.. الْحُرِّيَّةُ لَهَا مِذَاقٌ خَاصٌّ بِنَكْهَةِ
 مُمِيزَةٍ، لَا يَسْتَسِيغُهَا السَّجَّانُ، وَلَوْ كَانَ السَّجْنُ قَصْرًا
 مَرْمَرِيًّا أَخْضَرَ وَأَحْمَرَ.. الْحُرِّيَّةُ تَأْتِي مَعَ خَوَاتِيمِ فَصْلِ
 الرَّبِيعِ.. مَعَ عَنَاقِيدِ الْكَرْزِ».

لم يكذُ حبرُها الدَّافئُ يبرُدُ حتى محتهُ ولم تبقِ لَهُ
 أثرًا، لا تُريدُ أَنْ يَقْرَأَ أَحَدٌ مَا كَتَبَتْهُ تَحْتَ عِنْوَانِ:
 (الْحُرِّيَّةُ بِطَعْمِ الْكَرْزِ)، وَقَدْ كَانَ الْفَصْلُ رَبِيعًا تَفْصُلُهُ
 أَيَّامٌ عَنْ أَخِيهِ الصَّيْفِ.. فَصْلٌ تَتْرَاقِصُ فِيهِ أَشْجَارُ
 الْكَرْزِ مَزْهُوَّةٌ بِعَنَاقِيدِهَا الْحَمْرَاءِ.

الْمُرَبِّيَّةُ كَانَتْ تُلَاحِظُ شَيْئًا فَشَيْئًا أَنْ تَمْلَمَلَ أَمِيرَتِهَا
 الصَّغِيرَةَ مِنْ حَالِهَا بَلَغَ أَقْصَى مَدَاهُ.. وَأَنَّهَا كَلَّمَا

كبرتْ كَانَتْ تَشْعُرُ أَنَّ قَصْرَهَا الواسِعَ باتَ يَضِيقُ
صَدْرَهَا وَيَكْتُمُ أَنْفَاسَهَا . . وَأنها تُرِيدُ التَّحَرَّرَ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ
وَمَهْمَا كَانَتْ الصَّعَابُ .

لَمْ تَكُنِ الْمُرَبِّيَّةُ بِمَنَأَى عَنِ كُلِّ تِلْكَ الْمَشَاعِرِ،
وَخَافَتْ مِنْ أَنْ تَفْقَدَ سَيِّطَرَتَهَا عَلَى الْأُمُورِ، وَتَخْرُجَ
الْأَمِيرَةُ عَنْ طَوْرِهَا، فَقَرَّرَتْ أَنْ تُرْشِدَهَا إِلَى طَرِيقٍ
يَقُودُهَا إِلَى خَارِجِ الْقَصْرِ، حَتَّى تَخْفَفَ مِنْ قَسْوَةِ الْحَيَاةِ
عَلَيْهَا . . وَالتَّنَفُّسَ بَعِيداً عَنِ السَّجْنِ يَمْنَحُ السَّجِينِ
فِرْصَةً لِكَيْ يَزِدَادَ صَبْرًا عَلَى سَجْنِهِ . . وَرُبَّمَا الْعَكْسُ .

وَهَذَا الطَّرِيقُ عِبَارَةٌ عَنِ نَفْقِ سَرِيِّ، فِيهِ الْعَادَةُ
تَوْجِدُ فِي بَعْضِ الْقُصُورِ وَالْقَلَاعِ الْكَبِيرَةِ، وَخَاصَّةً تِلْكَ
الَّتِي تَخْصُ الْحُكَّامَ وَالْقَادَةَ، أَنْفَاقَ سَرِيَةٍ، تَمَكِّنُ كِبَارَ
نَزَلَاتِهَا مِنَ الْفِرَارِ، فِيمَا لَوْ تَعَرَّضَتْ قُصُورُهُمْ لِهَجُومِ
مَبَاغِتٍ، وَلَمْ يَكُنْ أَمَامَهُمْ وَسِيلَةٌ لِلنَّجَاةِ سِوَى الْهَرَبِ . .

سَمَحَتْ الْمُرَبِّيَّةُ طَيِّبَةَ الْقَلْبِ لِلْأَمِيرَةِ الَّتِي ضَاقَ

صدرها من سجنها الطويل بأن تخرج مِنْ حِينٍ لِآخَرَ عبر هذا النفق لتتنزه في الطَّبِيعَةِ الجميلة بسلام وأمان وخاصة في هَذِهِ الأيام الَّتِي تزهو به الطَّبِيعَةُ بجوها الرَّبِيعِي البديع، ولكن بشرط؛ ألا تبتعد عن أسوار القُصْر الواسع مسافة طويلة، وأن تَعُودَ خلال فَتْرَةَ قصيرة من النفق نفسه، فَجَمِيعُ أبواب القُصْر تظل مغلقة وبِشْكَلٍ دائم، باستثناء الباب الَّذِي يدخل مِنْهُ أبوها الحَاكِمُ ولا يعطي مفتاحه لأحد، إِضَافَةً إلى باب صغير يدخل مِنْهُ البُسْتَانِي، يفتحه ويغلقه بنفسه، والأَمِيرَةَ ممنوعَ عَلِيَّهَا أن تقترب من جَمِيعِ الأبواب، وهي تخشى أَنْ تَكُونَ مراقبةً فيَعْلَمُ الحَاكِمُ بخروجها..

صارت الأَمِيرَةَ الجميلة تخرج بَعْدَ أن تستأذن مُرَبِّتِهَا مِنْ خِلَالِ هذا النفق السري مِنْ حِينٍ لِآخَرَ، وفي فتراتٍ متقاربة، مرتدية عباءة تتخفى تحتها لكيلا يكتشف سرها أحد..

وفي كُلِّ مَرَّةٍ تَخْرُجُ فِيهَا تَنْطَلِقُ مِنْ أَعْمَاقِهَا مِشَاعِرٌ لَمْ
تَعْهَدَهَا مِنْ قَبْلُ . . فَأَلْحُرِّيَّةُ نِعْمَةٌ لَا تَقْدَرُ بِثَمَنِ ، وَلَا يُدْرِكُ
قِيَمَةَ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْكَبِيرَى إِلَّا مَنْ يَفْتَقِدُهَا . . وَالسَّجْنُ وَإِنْ
كَانَ مَرْفَهُاً إِلَى أَعْيُنِ حُدُودِ الرِّفَاهِيَّةِ ، فَإِنَّهُ يَبْقَى سَجْنًا . .
وَمَنْ ذَاقَ مَرَارَةَ السَّجْنِ - أَوِ الْأَسْرَ أَوِ الْإِعْتِقَالَ أَوِ
الْإِحْتِلَالَ - فَإِنَّهُ يُدْرِكُ إِحْسَاسَ السَّجْنَاءِ «الْأَحْرَارِ»
أَمْثَالَهُ ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ سَجْنَهُ عِقَابًا عَلَى جَرْمٍ اقْتَرَفَهُ . .

كَمَا أَنَّ الْأَحْرَارَ النَّبْلَاءَ يُجِلُّونَ وَيَعْظُمُونَ الْحُرِّيَّةَ وَإِنْ
لَمْ يَذُوقُوا طَعْمَ السَّجْنِ وَمَرَارَةَ الْقَيْودِ ، فَلَيْسَ بِالضَّرُورَةِ
أَنْ يَكُونَنَّ الْحُرَّ سَجِينًا لِيَشْعَرَ بِإِحْسَاسِ السَّجِينِ . .

وَكَمْ نَاضِلَ الْأَحْرَارِ فِي الْعَالَمِ وَلَا يَزَالُونَ مِنْ أَجْلِ
الْحُرِّيَّةِ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ حَتَّى يَحْطُمُوا قَيْدَ الْعِبَادِيَّةِ!

وَكَمْ سَمِعْنَا فِي التَّارِيخِ مِنْ قِصَصِ كَثِيرَةٍ تَرْوِي
بَطُولَاتِ الْأَحْرَارِ الشَّرَفَاءِ الَّذِينَ ضَحَوْا بِأَرْوَاحِهِمْ
كِرْمَى لَعْيُونِ الْحُرِّيَّةِ!



كَانَتْ تَمْتَطِي فِرْسَهَا الرَّمَادِيَةَ الْبَدِيعَةَ، تَنْطَلِقُ
 بِرَشَاقَةٍ، تَطِيرُ مَحَلَّقَةً مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ، تَقْفِزُ مَعَ الْفَرَسِ
 عَالِيًا فِي الْهَوَاءِ، تَتْرَاقِصُ مَعَ النِّسِيمَاتِ الْعَلِيلَاتِ قَبْلَ
 أَنْ تَهْوِيَ الْفَرَسَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ جَدِيدٍ وَاضْعَةً رُؤُوسِ
 أَطْرَافِهَا بِرَفَقٍ فَوْقَ الرَّمَالِ النَّاعِمَةِ، كَأَنَّهَا تَلَامَسُ قَطْنًا
 لِيْنِ الْمَلْمَسِ بِحَوَافِرِ مَطَايِيَةِ، فَتَشْعُرُ الْأَمِيرَةَ بِخَفَةِ غَزَالِ
 وَرَقَّةِ فِرَاشَةٍ، فِي الْإِقْلَاعِ وَالتَّحْلِيْقِ ثُمَّ الْهَبُوطِ، دُونَ أَنْ
 تَخْضِعَهَا الصَّدْمَاتِ وَتَرْهَقَهَا الْكِدْمَاتِ. كَأَنَّ الْفَرَسَ تَعْلَمُ
 أَنَّ عَلَى ظَهْرِهَا أَمِيرَةَ طَيِّبَةَ الْقَلْبِ ..

وَلَمْ يَكُنْ مِنْ عَادَةِ الْأَمِيرَةَ أَنْ تَتَأَخَّرَ حَتَّى لَا تَغْضَبُ
 مِنْهَا الْمُرِيْبِيَّةُ فَتَمْنَعُهَا مِنَ الْخُرُوجِ مَرَّةً ثَانِيَةً .. لَمْ تَكُنْ
 تَبْتَعِدُ كَثِيرًا حَتَّى تَعُودَ سَرِيعًا.

وَمَعَ مَرُورِ الْأَيَّامِ وَالرَّحَلَاتِ حَفِظَتْ مَعَالِمَ
 الْأَشْكَالِ الْقَرِيبَةِ الَّتِي تَحِيطُ بِالْقَصْرِ، مِنْ أَشْجَارِ الْكَرْزِ
 الَّتِي تَمْتَدُّ حَتَّى تَغْطِي الْجِبَالَ وَالْوُدْيَانَ وَالسُّهُولَ
 وَالْهَضَابَ وَالتَّلَالَ ..

الأمكنة الَّتِي تحيِّطُ بالأُميرَة مزروعة بمعظمها
 بأشجار الكرز. . ومع تفتح أزهار الأشجار في فصل
 الربيع. . فصل الخَيْر والجمال والعطاء. . كان قلبها
 يتفتح «ربيعاً» مثل هذا الفصل الجميل. . صادقت
 الأزهار والأطيّار. . ألفت الجماد والنبات كما يَألف
 الإنسانُ الإنسانَ.

اقترب فصل الربيع من نهايته، واقترب فصل
 الصيف من بدايته، وبدأت عناقيدُ الكَرزِ تتدلى بسخاء
 على أغصانها. . وبفخر وتواضع وخيلاء. .

كَانَتْ تلامس عناقيدُ الكَرزِ وتقطف بعُض حباتها،
 تلتهمها بنشوة الانتصار. . لم تعباً بمائه الأحمر الَّذِي
 كان يتطاير مَعَ فرسها حتى لطح ثوبها الجميل. تماهت
 مَعَ ما حولها، ما بيّن السماء والأرض.

شعرت أنها تشبه كل شيء في الطَّبِيعَة، بل إِنَّهَا
 الطَّبِيعَة نَفْسَهَا. .

ماء في نهر.. أو وردة في بستان.. أو طير في
 سماء.. أو... رُبَمَا: عنقود من الكرز..
 من أعلى ظهر فرسها كانت تطير محلقة مثل نسيم
 عليل.. تحمل طفولتها.. شبابها.. روحها التواقه
 للحرية.
 ومع كل هذه الحريرة المنقوصة؛ فإن سجن
 الأحرار أرحب مدى.





الْمَشْهُدُ الثَّالِثُ عَشْرَ

سُقُوطُ الْفَرَسِ

وفي يومٍ . . . وللمرّة الأولى . . . تركت الأميرةُ
لفرسها العنان تقود نفسها كما تشاء، دون أن تتحكّم
بسير لجامها، بل بدت وكأنّها منزوعة اللجام، مطلقة
العنان . . . «تطير» بلا نظام من مكانٍ إلى مكانٍ، محلقة
في الفضاء الرحب بحرية كاملة . . .

كانت تُربّت على ظهرها بمرح وهي تنطلق كسهم
مع الريح تُريدُ أن تُشجعها وتزيد من حماسها . . .
يتطاير شعر الفرس كما يتطاير شعر الأميرة . . .
كانتُ جزء متوحد بهذه الطيّعة المتحررة إلى حد بعيد
جداً من العبودية .

أمتعتها التجربة الفريدة، حتى نسيت نفسها وأمر



وعدها الَّذِي وعدته لِلْمَرْبِيةِ بِالْعُودَةِ إِلَى الْقَصْرِ خِلالِ
وَقْتِ قَاصِرٍ، مِثْلَ كُلِّ مَرَّةٍ، وَنَسِيتْ وَعَدَهَا الْآخِرَ بَعْدَمِ
الذَّهَابِ بَعِيداً.

شَعَرْتُ الْأُمِيرَةَ أَنَّهَا لَيْسَتْ أَمِيرَةً كَسَائِرِ الْأَمِيرَاتِ . .
شَعَرْتُ أَنَّهَا أَمِيرَةُ أَشْجَارِ الْكَرْزِ وَحِبَاتِهَا الْبَرَاقَةُ
الْمُتَلَالِئَةُ كَشَلالِ مَنْهَمِرٍ مِنْ أَعْلَى جَبَلٍ .

أَمِيرَةُ الْوُدْيَانِ وَالْتِلالِ وَالْجِبَالِ وَالسَّهُولِ . .
فَرَاشَةٌ مَلُونَةٌ هَائِمَةٌ فِي الطَّيِّعَةِ الْخِلاَبَةِ السَّاحِرَةِ . .
رَاحَتِ الْفَرَسَ تَقْفِزُ بِسَعَادَةٍ بِالْغَةِ . . هِيَ أَيْضاً تَنْشُدُ
الْحُرِّيَّةَ . .

تُرِيدُ أَنْ تَنْتَعِمَ بِهَذِهِ اللَّحْظَاتِ الْجَمِيلَاتِ، فَهِيَ
مِثْلُهَا مَسْجُونَةٌ مُنْذُ فَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ دَاخِلِ أَسْوَارِ الْقَصْرِ .
قَفِزَتْ أَشَدَّ مَا تَسْتَطِيعُ عَلَوًّا، قَفِزَتْ لِلْحُرِّيَّةِ لِأَوَّلِ
مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهَا . .

وفجأة.. . انزلقت إحدى قدمي الفرس الأماميتين
وهي تركض قرب حافة منحدر شديد الوعورة.. .

انقلبت رأساً على عقب.. . ارتطمت جنباتها
بأطراف المنحدر، وتلونت بلون تراب الأرض في
هبوطها المتصادم.

صار طيران الأميرة هذه المرة طيراناً حقيقياً.
طارت عدة أمتار ثمَّ حطت فوق الرمال والصخور.

أما الفرس المسكينة فقدَّ تشقبت مثل البهلوان،
وزهبت في اتجاه آخر.. . المنحدر جذبها بقوة لثقل
وزنها.. .

انقلبت حيناً على رأسها.. . وحيناً آخر على
جنبها.. . ثمَّ مؤخرتها.. . وظلت تنقلب.. . وتنقلب.. .
وتنقلب.. . وصدى صوتها الصاخب يتردد في أنحاء
المكان.. . حتى استقرت في قعر الوادي وصياحها



يعلو من شِدَّة الأَلَمِّ، ثُمَّ بدأ الصياح يخبو إلى أنْ تبدد الصوت تَمَاماً.

الأميرة الجريحة لم تَفَقِّدْ وعيها لحظة واحدة. عاشت تَفَاصِيلَ الحادث المروِّع، شاهدت الفرس تتدحرج على المنحدر. . كان المنظر مرعباً. .

لأول مرَّة في حَيَاتِهَا تَشْعُرُ بمثل هذا الهلع. . شعرت أنَّ الموت قريب مِنْهَا. . تراه بعينها.

الأميرة المسكينة عاشت الأَلَمَّ الفظيع. . ذاقته لِلمرَّة الأولى، صارت تجهش بالبكاء. . مشهد الفرس وصوتها وهي تتلوَّى من الأَلَمِّ غلب الجراح الكَثيرة التي أصابتها.

غرقت في بحر من البكاء حزناً على ما أصاب الفرس، الدموع انهمرت من عينيها بغزارة لأول مرَّة. ومن هول الصدمة لم تَشْعُرْ بالدماء تغطي قدميها. . لم تَظَنَّ أنَّ حادثاً مؤسفاً مثل هذا سيصيبها يوماً ما.

حاولت الوقوف.. الألم الفظيع سرى في عظامها
 مثل البرق.. أدركت أنها لن تقوى على التحرك من
 مكانها، بدا شبح الموت يخيم فوق رأسها، تشعر أنه
 يدنو منها، سيصيبها كما أصاب الفرس المسكينة،
 فمن ذا الذي يستطيع اكتشاف مكانها؟!
 «سأنزف حتى الموت».

لم تستطع مقاومة هذا التصور، صار الألم أقوى
 منها، ضعفت أمامه، استسلمت، ازداد بسرعة حتى
 غشي عليها، وفقدت وعيها تماماً.

في هذا الوقت كانت المريرة نعمة الله تشعر بقلق
 شديد: «هذه أول مرة تتأخر عن العودة».

انتظرت بعض الوقت: «الشمس تكاد تغيب
 والأمييرة لم ترجع بعد».

المريرة نعمة الله أدركت أن سوءاً لا بد أنه قد
 وقع: «لا بد من إخبار الحاكم في الحال».

لم تخش نِعْمَةَ اللهِ انتقام الحَاكِمِ مِنْهَا .

لم تخش أَنْ يَتَّهَمَهَا بالتقصير والإهمال . .

هي أَكْثَرُ الناسِ مَعْرِفَةَ ببطش الحَاكِمِ وجبروته ،
فَكَيْفَ في أمر يخصُّ ابنته الوحيدة؟! ومع ذَلِكَ يَجِبُ
التحرك بسرعة . . رَبَّمَا تَكُونُ الأُمِيرَةَ في خطر وتحتاج
لمساعدة .

على الفور أطلقت نِعْمَةَ اللهُ سرباً من الحمام
لا يطلق إلا عِنْدَ الخطر، ينطلق بقوة وسرعة بالغة نحو
قَصْرِ الحَاكِمِ، فَيَعْلَمُ الحَاكِمُ أَنَّ سَوْءاً قَدْ حصل
لابنته، هَذِهِ الطريقة أسرع من فارس يقود أقوى
الخيول . . الأَمْرُ لا يحتمل تضييع لحظة واحدة . .

وخلال مدة قصيرة حضر الحَاكِمُ على عجل برفقة
مَجْمُوعَةٍ كَبِيرَةٍ من الجنود، بحثوا في كل مَكَانٍ، لم
يترك الجنود شبراً واحداً دُونَ أَنْ يَبْحَثُوا فيه . . صعدوا

الجبال.. نزلوا الوديان.. تتبعوا كل أثر ممكن..
نزلوا النهر..

صاح بعضهم:

«رُبَّمَا كَانَتْ الْأَمِيرَةُ تَسْبَحُ فِي الْمَاءِ».. ولم
يجرؤوا على اسْتِخْدَامِ لَفْظَةِ «تَغْرُقُ». وبعد بحث مضمّن
لم يجدوا شيئاً..

الْحَاكِمُ استدعى مزيداً من الجنود..

استمر البحث أياماً طويلة دُونَ انقطاع، في الليل
وفي النهار.

لم يأذن الْحَاكِمُ لِلْجُنُودِ بِالرَّاحَةِ وَالنُّوْمِ.. لم يجرؤ
واحد مِنْهُمْ على النزول من فرسه إلا لقضاء الحاجة،
وإذا غلب أحدهم النعاس نام جالساً على ظهر
الْفَرَسِ.. لَنْ يَسْتَطِيعُوا الْعُودَةَ دُونَ أَنْ تَكُونَ الْأَمِيرَةُ
بصحبتهم.. وإلا سيفتك بهم الْحَاكِمُ.

أما الْحَاكِمُ فَقَدْ خَرَجَ بِنَفْسِهِ يَبْحَثُ عَنْ ابْنَتِهِ..

يحمل سوطه ليضرب به الفرسان والجنود إذا تعبوا،
لكي يبحثوا بجد دُونَ «تكاسل» ..

حضرت فرقة صَغِيرَة ماهرة بالتسلق .. قَالَ قائدها
لِلْحَاكِمِ إنهم وجدوا فرس الأَمِيرَة هالكة في قعر
الوادي السحيق، وَعَلَيْهِ أَنْ يرسل الجنود إلى ذَلِكَ
الوادي ليجثوا في كُلِّ ناحية فيه ..

تَجَمَّعَ الجنود كُلُّهم هُنَاكَ .. ومن خشي النزول في
الوادي أمر الْحَاكِمُ بقتله .. لم يَكُنْ بَعْضُ الجنود
ماهرين بتسلق الجبال ونزول المنحدرات، وأكثرهم
لا يملكون المَعَدَّات اللازمة ..

سقط كَثِيرٌ مِنْهُمْ في الوادي وأصيب بَعْضهم
بإصاباتٍ خطيرة .. وَالْحَاكِمُ لم يَكُنْ يبالي بصياحهم
ولا بالأمهم ..

أحد القادة الْمُقْرِبِينَ من الْحَاكِمِ يئس من العثور
على الأَمِيرَة، تَأَكَّدُ أَنْ لا أثر لَهَا في الوادي ..

خشي أَنْ يَفْقَدَ الجنود كلهم وهم يتساقطون في
 قعر الوادي بِالْعَشْرَاتِ ..

اقترب من الْحَاكِمِ منحني الرأس .. استعطفه
 ليسمح لَهُ بِالْكَلامِ .. أشار إِلَيْهِ الْحَاكِمُ أَنْ تكلم
 باختصار ..

قَالَ القَائِدُ لِلْحَاكِمِ :

«مولاي الْمُعْظَمِ .. الجنود يهلكون .. مضى على
 البحث أياماً طويلة ولم نجد شَيْئاً .. لو كَانَتْ مولاتي
 الْأُمِيرَةَ سقطت في قعر هذا الوادي فَمِنْ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ
 تَكُونِ الآنَ على قَيْدِ الْحَيَاةِ .. الذُّنَابِ ..» .

لم يَكِدِ القَائِدُ يَتَفَوَّهَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ .. وَقَبْلَ أَنْ يُتِمَّ
 كَلَامَهُ .. أَشَارَ الْحَاكِمُ إِلَى جُنْدِيٍّ قُرْبَهُ أَمِيراً بِقَطْعِ رَأْسِ
 القَائِدِ .. فَفَنَّدَ الجُنْدِيُّ الأَمْرَ على الفَوْرِ بِالْإِشَارَةِ فَقَطَّ ،
 وَدُونَ أَنْ يَتَفَوَّهَ الْحَاكِمُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ .



وَعِنْدَمَا رَأَى الْجُنُودُ مَا حَدَثَ لِقَائِهِمْ . . أَصَابَهُمْ
ذُعْرٌ شَدِيدٌ . .

سَرَى الرَّعْبُ فِي صُفُوفِهِمْ بَعْدَ أَنْ تَحَسَّسَ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ رَأْسَهُ، فَاسْرَعُوا يَرْكُضُونَ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ
كَالْمَجَانِينِ، عَسَى أَنْ يَجِدُوا شَيْئاً يُهْدِيهِمُ الْحَاكِمَ
الظَّالِمَ .

وكان كلُّ واحدٍ مِنْهُمْ يَأْمَلُ ألا يجدَ الأَمِيرَةَ مَيِّتَةً
خَوْفاً من بطشِ الحَاكِمِ وَجُنُونِهِ .





الْمَشْهُدُ الرَّابِعُ عَشَرَ الْأَمِيرَةُ الْجَرِيحَةُ

في هذا الوقتِ كَانَتِ الْأَمِيرَةُ الْجَرِيحَةُ تَتَعَاثَى
وَتَسْتَعِيدُ وَعَيْهَا فِي مَكَانٍ آخَرَ لَا يَعْرِفُ جُنُودُ الْحَاكِمِ
مَكَانَهُ .

كَانَ ذَلِكَ فِي كَهْفٍ بَعِيدٍ بَعِيدٍ . . فِي بَطْنِ جَبَلٍ
شَدِيدِ الْانْحِدَارِ . .

كَانَتِ الْأَمِيرَةُ مَمْدَدَةً عَلَى فِرَاشٍ بَسِيطٍ تَحَاوَلَتْ فَتَحَ
عَيْنَيْهَا دُونَ أَنْ تَعْلَمَ أَيْنَ هِيَ ، وَمَا الَّذِي جَرَى مَعَهَا
بَعْدَ تِلْكَ الْحَادِثَةِ الرَّهِيْبَةِ .

اكتشفت أن مجموعة من الرجال عثروا عليها ملقاة
في الوادي مضرجةً بدمائها . . كان من بينهم رجلٌ
يُعرفُ بِالطَّبِّ ، حَمَلُوهَا فَوْقَ لَوْحٍ مِنَ الْخَشْبِ ،



وَنَقَلُوهَا بِعِنَايَةٍ إِلَى هَذَا الْكَهْفِ، طَمَسُوا آثَارَهُمْ،
أَخَفَوْا دِمَاءَ الْفَتَاةِ وَغَطَوْهَا بِالتَّرَابِ حَتَّى لَا يَكْتَشِفُهَا
أَحَدٌ وَيَعْرِفَ جُنُودَ الْحَاكِمِ مَكَانَهُمْ فَيَبْطِشُوا بِهِمْ.

الطَّيِّبُ عَالَجَ جِرَاحَ الْأَمِيرَةِ وَكَسُورَهَا .. حَقَّنَهَا
بِالدَّوَاءِ وَمَدَّهَا بِبَعْضِ الْغِذَاءِ السَّائِلِ حَتَّى تَتَغَلَّبَ عَلَى
مَا أَصَابَهَا وَتَسْتَعِيدَ صِحَّتَهَا ..

فَتَحَتِ الْأَمِيرَةُ عَيْنَيْهَا .. لَمْ تَسْتَطِعِ الْكَلَامَ ..
عَلِمَتْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الرُّجَالَ أَنْقَذُوهَا مِنَ الْمَوْتِ ..

لَكِنْ مَنْ يَدْرِي .. رُبَّمَا كَانُوا قِطَاعَ طَرُقٍ .. هَارِبِينَ
مِنَ الْقَانُونِ .. مجرمين .. لصوص ..

قَالَتْ فِي نَفْسِهَا: «بِالتَّأَكُّيدِ هُمْ لَصُوصٌ .. فَلِمَاذَا
إِذَا يَسْكُنُونَ فِي الْجِبَالِ؟!» .

حَمَدَ الطَّيِّبُ رَبَّهُ وَشَكَرَهُ شُكْرًا كَثِيرًا عَلَى سَلَامَةِ
الْفَتَاةِ .. وَهَنَأَهَا وَتَمَنَّى لَهَا الشُّفَاءَ الْكَامِلَ الْعَاجِلَ .

جاءَ مَجْموعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ يُهَنِّئُونَ الفَتَاةَ هَمَّ
أَيْضاً عَلَى نَجَاتِهَا مِنَ المَوْتِ . .

طَلَبَ مِنْهَا أَحَدُهُمْ أَنْ تُخْبِرَهُ عَنِ مَكَانِ أُسْرَتِهَا . .
فَهُمْ بِالتَّأَكُّيدِ قَلَقُونَ عَلَى ابْتِهِم . .

لَمْ تَتَكَلَّمِ الأُمِيرَةَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ . .

اعْتَقَدُوا أَنَّهَا لَا تَزَالُ فِي حَالَةٍ مِنَ الذَّعْرِ نَتِيجَةَ
مَا أَصَابَهَا . . وَأَنَّ الصَّدْمَةَ أَخْرَسَتْهَا . .

الطَّيِّبُ طَمَأَنَّا أَنَّهَا الآنَ أَصْبَحَتْ بِخَيْرٍ وَلَا يَوجَدُ
خَطراً عَلَى حَيَاتِهَا . . لَكِنْ يَجِبُ مِرَاقَبَةُ وَضْعِهَا، وَأَنَّ
عَلَيْهَا أَنْ تُكُونَ حَذِرَةً جِداً بِسَبَبِ الكَسْرِ البَسِيطَةِ الَّتِي
أَصَابَتْهَا، وَأَخْبَرَهَا بِأَنَّهَا لَنْ تَسْتَطِيعَ العُودَةَ إِلَى بَيْتِهَا
وَأَهْلِهَا قَبْلَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ، لِأَنَّ الحَرَكَةَ قَدْ تَشَكَّلَتْ
خَطراً شَدِيداً، وَأَنَّهَا تَحْتَاجُ لِبَعْضِ الوَقْتِ حَتَّى تَلْتَمَمَ
جِراحُهَا وَتَلْتَحِمَ كَسورُهَا .

كَانَ هُنَاكَ مَجْموعَةٌ مِنَ النِّسَاءِ يَقْمَنَ بِخِدْمَةِ الأُمِيرَةَ

ورعايتها.. غسلن جسدها وثيابها، وصرن يطعمنها
بحنان وود.

وكان الطبيب يأتي إليها من حين إلى آخر يطمئن
عليها، يسمعها كلاماً جميلاً؛ ويقول لها أنها في عمر
ابنته الصغيرة التي يحبها كثيراً لكنه فقدتها قبل فترة ولم
يعد يعرف أين هي، وأخبرها أنه قلق جداً عليها،
ولذلك فهو يفهم شعور أهلها وقلقهم عليها، ثم يتركها
باحترام مثلما دخل..

لم تخبرهم الأميرة باسمها، ولم تقل لهم ابنة من
هي، لكنهم كانوا يظنون أنها ابنة أسرة كريمة ثرية
بسبب نوعية الثياب التي كانت ترتديها، واعتقدوا
لوهلة أنها قد تكون هاربة من أسرتها لسبب من
الأسباب.. أو أنها فقدت ذاكرتها.

لاحظت الأميرة أن الرجال والنساء لطفاء جداً
مَعَهَا، ومع ذلك ظلت خائفة من أن تقول لهم أنها ابنة

الْحَاكِمِ، فَلرُبَّمَا كَانُوا مِنَ الْأَشْرَارِ الَّذِينَ تَحَدَّثَ أَبُوهَا عَنْهُمْ، قَدْ يَقْتُلُونَهَا أَوْ يُؤْذِنَهَا، وَقَدْ يَطْلُبُونَ فِدْيَةً مِنَ وَالِدِهَا مَبْلَغًا كَبِيرًا مِنَ النُّقُودِ الذَّهَبِيَّةِ..

فكرت الأَمِيرَةَ: «لكن كَيْفَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ مجرمين؟!».

سمعتهم يتحدثون إلى بعضهم بعضاً. عرفت أن من بينهم أطباء، شعراء، مهندسين، رسّامين، علماء، أدباء، معلمين، حرفيين، تجار، طلاب.. وغيرهم كثير... من الكبار والصغار..

في كُلِّ لحظةٍ كَانَتْ تزداد احتراماً لهم.. سمعتهم يتحدثون عَنِ الثَّوْرَةِ.. عن ظلم الْحَاكِمِ للشَّعْبِ.. عن جوع النَّاسِ.. عن آلامهم.. عَنِ الْقَهْرِ الَّذِي يَعِيشُونَهُ.. عَنِ السَّجُونِ.. عَنِ الْقَتْلِ.. عَنِ التَّعْذِيبِ..

سمعت كَلِمَاتٍ مثل: جور الْحَاكِمِ، جشع الْحَاكِمِ.. المساجين، القتلى، المعتقلات..

سمعت أشياء وأشياء لم تُكُنْ تتصور وجودها،
ولم تُكُنْ تتوقع أن تسمعها يوماً.. اكتشفت الظلم
الواقع على الناس، وأدركت أنّ أباهما يسرق مالهم
وقوتهم وحياتهم.. حاولت إنكار ما سمعت، لم ترد
أنّ تُصدق كل هذا الكلام: «كاذبون.. كاذبون»..

صارت تصرخ في أعماقها، في البداية كانت
خائفة من أن يعرف هؤلاء هويتها وأنها ابنة من،
«لكنهم طيبون.. لطفاء.. يعاملونني بكلّ احترام..
ترى ماذا سيفعلون لو اكتشفوا أنني ابنة الحاكم؟».

فجأة جاء رجل على عجل وهو يصيح:

«الحاكم يبحث عن ابنته المفقودة».

سمعت الأميرة الصيحة فأصابها خوف شديد..

قالت:

«سيقتلونني بكلّ تأكيد».

لكن خوفها لم يكن في محله .. لم يهتم أحدٌ بهذا الأمر .. طريقة تعاملهم معها لم تتغير ..

جاء الطيب، ابتسم لها كما ابتسم لها أول مرة:

«الحمد لله .. أنت بأفضل حال اليوم يا بنتي ..»

ثم قال لها بكل هدوء:

«ما رأيك أن تأخذي الآن فرساً من أجود خيولنا

وتوجهي إلى أهلِكَ .. لا بُدَّ أنَّهُم قلقون عليك» ..

وتابع حديثه وهو يضحك:

«لكن لا تستعجلي وتطيري مثل المرأة الماضية ..

سيرى بهدوء وروية حتى لا تقعي من جديد ..

فجراحك لم تلتئم بعد» .

لم تصدق الأميرة الجميلة ما تسمع .. قالت في

نفسها: «أهذا حلم أم حقيقة؟!»

أدرك الطيب ما في عينيها فقال مطمئناً:

«ما كُنَّا لنفعل ما تفكرين به يا بنتي، لا ذنب لك

وإن كنت ابنة الْحَاكِمِ .. نَحْنُ لَسْنَا بِمَجْرَمِينَ كَمَا
يَقُولُونَ عَنَا .. اذْهَبِي بِسَلَامٍ .. اذْهَبِي .. فَالْنَاسُ
تَمُوتُ الْآنَ مِنْ أَجْلِكَ» .





الْمَشْهُدُ الْخَامِسُ عَشَرَ

الْأَمِيرَةُ تَعُودُ إِلَى قَصْرِهَا

لم تفهم الأميرة ماذا كان قصد الطبيب بجملته
الأخيرة..

لكنّها لم تكن تصدق ما سمعته عن ظلم أبيها،
وتريد إثبات العكس لهم جميعاً، فوالدها لطيف جداً
معها، وهي لا تتوقع أبداً أن يكون كما يقولون..
قالت للطبيب الطيب أن أباه هو أيضاً رجل طيب،
ويظن أنكم أشرار كما تظنون أنه شرير..

امتطت فرساً قوية.. ودّعت الرجال وشكرت
النساء على عنايتهن بها..

سارت الفرسُ بهدوءٍ إلى وجهةٍ لا يعرفها هؤلاء



الرِّجَالُ، وَدُونَ أَنْ يَتَّبِعَهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ لِحِمَايَتِهَا بِحَسَبِ رَغْبَتِهَا ..

سَلَكْتُ طَرِيقًا سَرِيَّةً، وَدَخَلْتُ أَنْفَاقًا لَا يَعْرِفُهَا جُنُودُ أَيْيَها .

وَصَلْتُ إِلَى قَصْرِها الْمَرْمَرِيِّ وَدَخَلْتُ غَرَفَةَ مُرَبِّيتِها ..

كَادَ يُغْمَى عَلَى نِعْمَةِ اللَّهِ مِنْ شِدَّةِ الْمَفَاجِئَةِ، لَكِنَّهَا تَمَالَكَتْ نَفْسَهَا وَحَضَنْتْ أَمِيرَتَهَا، وَصَارَتْ تَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ ..

لَمَحَتْ الْمُرَبِّيَّةُ بَعْضَ آثَارِ الْجِرَاحِ الَّتِي مَا تَزَالُ ظَاهِرَةً عَلَى وَجْهِها وَيَدَيْها فَسَأَلَتْهَا عَنِ السَّبَبِ، فَقَالَتْ لَهَا أَنَّهَا سَتَخْبِرُها بِأَمْرِها فِيمَا بَعْدَ، لَكِنْ هُنَاكَ أَمْرٌ يَجِبُ أَنْ تَعْرِفَهُ أَوَّلًا ..

اسْتَعْرَبَتِ الْمُرَبِّيَّةُ، وَلَمْ تَتَكَلَّمْ .. تَرَقَّبْتُ مَا سَتَقُولُهُ الْأَمِيرَةُ ..

ثم سمعتها تقول: «خالتي.. سأسألك سؤالاً واحداً؛ هل أبي ظالمٌ بحقِّ الشَّعبِ؟».

أحنت نعمةُ الله رأسها.. لم تكن تتوقَّع هذا السؤال الآن: «مولاتي».

«أرجوكِ يا خالة.. أجيبي»..

«كلامٌ فارغٌ.. من وضع في رأسكِ هذا الكلام؟»..

«أجيبي»..

«يجب أن نبلغَ أباكِ بعودتكِ، فقد أصابه غضبٌ شديدٌ وقلقٌ بالغٌ منذُ اختفائكِ.. الحمدُ لله أنكِ عدتِ إلينا بِسلامٍ».

وعلى الفورِ أبلغتِ المُربيَّةُ جنودَ الحَاكمِ بعودةِ الأُميرةِ سالمةً، ولم تمضِ فترةٌ طويلةٌ حتى حضرَ والدها على عجلٍ وهو شديدُ الغضبِ، وعضواً عن سؤالِ ابنته عن سرِّ اختفائها والاستفسارِ عن الكدماتِ التي على وجْهِها ويديها، قام بضربها بيده فأصابها

بجرح في كتفها لم يشفَ بعد، فسقطت على الأرض
تتلوى من الألم . .

الغضبُ في غيرِ مكانه صفةٌ ذميمةٌ، فهو نزغةٌ من
نزغاتِ الشيطان، يقع بسببه من السيئاتِ والمصائبِ
ما لا يعلمه إلا الله. والغضبُ لا يُبدي صاحبه بمظهرِ
القويِّ الشديدِ، بل إنَّ الإنسانَ الهادئَ الوقورَ هوَ
القويُّ حقاً، لأنَّه يسيطرُ على مشاعره، ولا يتصرفُ
دُونَ وعيهِ، فالغضبُ يخرجُ الإنسانَ عن وعيه، ويجعله
يتفوّه بكلماتٍ لا يقولها الإنسانُ الهادئُ الرزِينُ، ويقوم
بتصرفاتٍ لا يقومُ بها الإنسانُ العاقلُ . .

وقالتِ الحكماءُ: إنَّ الغضبَ جنونٌ مؤقتٌ،
ولا شيءٌ أفضلَ من التَّفكيرِ بهدوءٍ. وتجنَّب الغضبِ
مَهْمَا كانتِ الصعابُ، حتى يَسْتَطِيعَ الإنسانُ حلَّ
المشكلاتِ التي تُواجهُه سواءَ أكانتْ صَغِيرَةً أم كَبِيرَةً،
فإذا غضبَ الإنسانُ فلنَ يَسْتَطِيعَ مواجهةَ مشكلته

بحكمة واتزان، ولن يَسْتَطِيعَ حلها مَهْمَا أُوتِيَ من علم
 وخبرة في الحَيَاة. فالغضب آفة الحِكْمَةِ، بل رُبَّمَا تكبر
 المُشْكَلَة وتنمو وَيُضْبِحُ حلها أَكْثَرُ صعوبة وورماً خبيثاً
 أو علة مستحكمة مستحيلة العلاج.

وقَدْ قيل: إن من أطاع غضبه أضاع أدبه، والعقل
 الَّذِي يستشيط غضباً مصيره مصير الخطأ.

فكرت الأَمِيرَة بِذَلِكَ رغم الألم الجسدي والنَّفْسي
 الَّذِي أصابها. . فَهِيَ لم تر أباهَا من قبل بِهَذِهِ الحال
 من الغضب، والشدائد تظهر حَقِيقَة الإِنْسَان وتزيل
 ما يضعه من أقنعه وقشور.

لم يراجع الأب نفسه، ولم يندم على ما فعل، بل
 كشر عن أنيابه، وأزبد وأرعد، وحذر وهدد الأَمِيرَة لو
 تكرر هذا الفعل وخرجت من قَصْرها دُونَ إِذْنه. . ثُمَّ
 تركها تبكي من الآلام الَّتِي أصابتها من جراح النَّفْس
 أَكْثَرُ ممَّا خلفته جراح الجسد.



جلست الأميرة على سرير مُرَبَّيْتَهَا نِعْمَةَ اللَّهِ وَقَالَتْ
 بصوت حزين متقطع: «الآن تأكدت أن ما قالوه
 صحيح وصادق.. يعتدي على الناس.. يسرق بيوتهم
 ويأخذ أراضيهم وممتلكاتهم بالقوة.. ويحرم أولادهم
 من كل شيء.. ويقتل ويسجن من يعارضه.. إن
 أبي مجرم.. مجرم..».

الأميرة تبكي بمرارة.. والمربية نعمة الله تحضنها
 وتضمها إلى صدرها.. حاولت أن تشرح لها وتُخبرها
 أن والدها ليس مسؤولاً في الواقع عن تصرفاته، فهو
 واقع تحت سطوة وسيطرة زوجته الشريرة.

لم تقبل الأميرة الاستماع إلى أي تبرير يبرئ ساحة
 والدها..

قالت بإصرار:

«لن أعيش في هذا السجن بعد اليوم، لن أقبل

بِالْحَيَاةِ الْمُنْعَمَةِ وَالنَّاسُ يَمُوتُونَ جَوْعاً وَقَهْرًا بِسَبَبِ ظَلَمِ أَبِي.»

لكنَّ الأُمِيرَةَ الصَّغِيرَةَ لم تَشَأْ مُوَاجِهَةً أَيْبَهَا بِأَفْعَالِهِ . .
هي تعلمُ أَنَّ الأَمْرَ ليس بيده وأنه يتصرَّفُ بجنونٍ، وسوف
يسجنُّها في سجنٍ حقيقيٍّ، وسوف يمنعُها من لقاءِ
الشعبِ كما كان يفعلُ طوالَ حَيَاتِهِ . . بل سَوْفَ يَنْتَقِمُ مِنَ
النَّاسِ أَكْثَرَ . .

هي لم تعارضُ والدَها سابقاً، كَانَتْ قَانِعَةً بِحَبْسِهَا
في قَصْرِهَا الكَبِيرِ، لَكِنَّهَا هَذِهِ المَرَّةَ ستفعلُ ما يَجِبُ
أن تفعله، ولن ترضخَ لِأَنَّ تَشْعُرَ بقرارةِ نَفْسِهَا بِفضلِ
مَنْ أنقذَها من المَوْتِ، وتعرفُ حَقِيقَةَ ما فَعَلُوهُ مَعَهَا
وَحَقِيقَةَ ما هم عَلَيْهِ لا كما قَالَ لَهَا والدَها . .

هي متأكِّدةٌ أَنَّ الحوارَ مَعَ أَيْبِهَا لن يجدي نفعاً . .
وأَصْبَحَ مِنَ المُسْتَحِيلَاتِ . . وَإِنْ كَانَ الحوارُ الناجحُ
أهمَّ وسيلةً لتحقيقِ الغاياتِ، فعندَ مناقشةِ أمرٍ مَعَ



شخصٍ ما فهذا يَعْنِي رغبة الطرفَيْنِ في توصيلِ رأيٍ
 ما وإقناعِ الطرفِ الآخرِ به، كَمَا أَنَّ بَعْضَ الحوَارَاتِ قَدْ
 تَنْتَهِي بخلافاتٍ ومشاحناتٍ وخصوماتٍ . . لكن الحوَارَ
 مَعَ أَبِيهَا لا يخضعُ لمثلِ هَذِهِ المَعَاييرِ، فكَيْفَ يَكُونُ
 الحوَارُ حوَاراً مَعَ مَنْ لا يَقْبَلُ أن يحاورَهُ أحدٌ؟؟!!

هي تعلمُ أَنَّهُ من المُهَمِّ جداً عِنْدَ التَّحَاوِرِ التَّحَلِّي
 بالصَّبْرِ، كَمَا أَنَّ مَهَارَةَ ضَبْطِ النَّفْسِ والتَّحَكُّمِ
 بِالْأَعْصَابِ أَكْثَرُ أَهمِيَّةٍ من الحوَارِ نَفْسِهِ . . إِضَافَةً إِلَى
 أَنَّ مَهَارَاتِ الإقْنَاعِ لا تُسْتخدَمُ مَعَ العقولِ الجَامِدَةِ الَّتِي
 لا تَفْتَحُ مجالاً لِلحوَارِ المُقْنَعِ بِالْأدْلَةِ والبراهينِ . . فإذا
 فَقَدَ الإنسانُ أَعْصَابَهُ وتكَلَّمَ بِكلامٍ جَارِحٍ وخارجٍ عَنِ
 المألوفِ وعن ضوابطِ الحوَارِ فسوفِ يَخْسِرُ المَحَاوِرَةَ
 كُلَّهَا، بَعْدَ أن يفقدَ ثِقَةَ مَنْ يحاورُ واحترامَهُ. فكَيْفَ إنْ
 كَانَ المَحَاوِرُ لا يَسْتيسِعُ لُغَةَ الحوَارِ ولا يملكُ غَيْرَ لُغَةِ
 القتلِ والعقابِ!؟

وَيَقُولُ بَعْضُ الْخَبْرَاءِ كَمَا قَرَأَتِ الْأَمِيرَةُ الصَّغِيرَةُ
 فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَمَلِكُهَا فِي مَاضٍ قَرِيبٍ:
 «إِنَّ مَلَكَهَ الْبَرَاعَةَ فِي الْحَوَارِ لَيْسَتْ تَحْصِيلاً حَاصِلاً
 حَتَّى عِنْدَ ذَوِي الْمَسْتَوِيَّاتِ الْقِيَادِيَّةِ أَوْ الْعِلْمِيَّةِ أَوْ
 الْفِكْرِيَّةِ الرَّفِيعَةِ، بَلْ هِيَ مَهَارَةٌ مُسْتَقَلَّةٌ، قَدْ تَكُونُ فِي
 بَعْضِ جَوَانِبِهَا قَابِلَةً لِأَنَّ تَكْتَسَبَ بِالْفِطْرَةِ، لَكِنَّ مَعْظَمَهَا
 يَتَطَلَّبُ وَعْيًا وَجُهْدًا لِكِتْسَابِهِ».

هِيَ تُذَكِّرُ أَنَّهَ مِنَ الْمُهْمِّ لِلْغَايَةِ قَبْلَ أَنْ تُوَاجِهَ
 خَصْمَهَا فِي الْحَوَارِ أَنْ تَكُونِ عَلَى عِلْمٍ بِجَوَانِبِ
 الْمَوْضُوعِ الَّذِي تُرِيدُ أَنْ تُحَاوِرَهُ فِيهِ، فَلَيْسَ مِنْ
 الْمَعْقُولِ أَنْ تَدْخَلَ فِي نِقَاشٍ عَلَى أَمْرٍ تَجْهَلُهُ، وَأَنْ
 يَكُونَ سَعِيهَا فِي الْحَوَارِ وَالنِقَاشِ هُوَ فَقَطْ مِنْ أَجْلِ
 إِثْبَاتِ رَأْيِهَا وَالِدِّفَاعِ عَنِ شَخْصِهَا، بَلِ الْمُهْمُّ فِي
 الْحَوَارِ وَالنِقَاشِ الْوَصُولُ إِلَى الْحَقِيقَةِ، سَوَاءَ أَكَانَتْ
 مِنْ عِنْدِهَا أَوْ مِنْ عِنْدِ مَنْ تَحَاوَرُ.

كما أَنَّ العنادَ في محاورَةٍ لا يفيدُ ولا يحقِّقُ
الغاياتِ، بل إن على المحاورِ أَنْ يتَّواضعَ قدرًا كَبيرًا،
سواء أكانَ الحقُّ في النِّهايةِ مَعَهُ أو مَعَ خَصْمِهِ، فإذا
وُجِدَتِ الحَقِيقَةُ عِنْدَ خَصْمِهِ عَلَيْهِ الإقرارُ لَهُ بِالحقِّ دُونَ
الإصرارِ على الرأيِ بِالرَّغْمِ من وجودِ ما يُوَكِّدُ وجهةَ
نظرِ المحاورِ..

والأَمِيرَةُ الجميلةُ تعلمُ أَنَّ من أبرزِ صفاتِ المحاورِ
الناجحِ مهارةَ الإنصاتِ.. وأبوها لا يُريدُ الإنصاتَ
بِالمُطلقِ، ولا يُدركُ أَنَّ من واجبِهِ أَنْ يَسمعَ أيضًا،
وليسَ أَنْ يَتَكَلَّمَ وَيَتَكَلَّمَ وَيَتَكَلَّمَ باسترسالٍ دُونَ تمهُلٍ
وتوقُّفٍ، بل يَجِبُ أَنْ يَسمعَ لمحاورِهِ أَنْ يُبديَ رأيَهُ
ويَتَكَلَّمَ كَمَا يُريدُ وبحريَّةٍ تامَّةٍ، دُونَ محاولةِ إسكاتهِ أو
تسفيهِ رأيهِ أو إرهابِهِ وتخوينِهِ بِالقتلِ أو بالسَّجنِ..

بل يَجِبُ أَنْ يَحترمَ رأيَهُ، فَهُوَ يَتَكَلَّمُ حسبَ ما لَدَيْهِ
من معلوماتٍ، ورُبَّمَا كانَ مُخطئًا بمعلوماتِهِ، ومَنْ

يملك المعلومات الصحيحة ينتصر في النهاية، أو ربّما كان المتحاوران معاً على صوابٍ من جانبٍ ومخطئين من جانبٍ آخر. . الحَقِيقَةُ لَيْسَتْ مَلِكِ شَخْصٍ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ، فَقَدْ يَكُونُ لَهَا عِدَّةُ أَطْرَافٍ. .

هي تُريدُ أَنْ يَكُونَ الحِوَارُ رَفِيعاً رَاقِياً. . فليس الهدفُ أَنْ تَنْتَصِرَ بِرَأْيِهَا أَوْ أَنْ يَنْتَصِرَ بِرَأْيِهِ، بل هي تُريدُ البَحْثَ عَنِ الحَقِيقَةِ وَتَثْبِيتَ الرَأْيِ الصَّائِبِ. .

لكن هذا كله لن يُجدي نفعاً بسببِ الانفصالِ الكُلِّيِّ عَنِ الوَاقِعِ الَّذِي أَصَابَ أَيْبَهَا، فحوَّلَ قلبه من قلبِ إنسانٍ محبِّ إلى قلبِ مجرمٍ، تتحكَّمُ فِيهِ زَوْجَةٌ شَرِيرَةٌ لَا تُريدُ الخَيْرَ لِلنَّاسِ. بل تُريدُ فقط أَنْ تجعلَ من أفرادِ الشعبِ عبيداً لها، يخدمونها ويأتمرونَ بأمرِها. . ولا سبيلَ للخلاصِ مِنْهَا وَمِنَ الحَاكِمِ الظَّالِمِ إِلَّا التَّمَرُّدُ عَلَيْهِ. .

لِذَا قَرَّرَتِ الأَمِيرَةُ الطَّيِّبَةُ القلبَ الانضمامَ إلى

صفوف المقاومين من شعبها . . ومقاومة أبيها
الحاكم . .

قالت للمربية نعمة الله:

«تعالى معي . .» .

أجابتها:

«أنت لا تحتاجين اليوم إلى امرأة عجوز مثلي . .

لقد كبرت . .» .

لم تمنعها المربية، كانت تعلم أن ما تقوم به الأميرة
الصغيرة هو الصواب، فهي تريد الوقوف إلى جانب
الحق بعدما تأكدت من ظلم أبيها، وأنه لا فائدة من
مواجهته بالحقيقة، ولن تستطيع شيه عن ظلمه للناس . .

انطلقت الأميرة عائدة إلى الجبال . . إلى الكهف

الذي جاءت منه .





الْمَشْهُدُ السَّادِسُ عَشْرُ وَالْأَخِيرُ

نَهَايَةُ الظَّالِمِ

جَنَّ جُنُونََ الْحَاكِمِ عِنْدَمَا عَلِمَ أَنَّ ابْنَتَهُ هَرَبَتْ مِنْ
الْقَصْرِ . . .

لَكِنَّ الْفِتَاةَ لَمْ تَكْتَفِ بِالْهَرَبِ فَقَطْ . . . بَلِ التَّحَقَّتْ
بِالْمُتَمَرِّدِينَ عَلَى سُلْطَانِهِ، بَلِ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَدِ
انْطَلَقَتْ لِتُقَاتَلَ مَعَ جُنُودِهِ فِي خَنْدَقٍ وَاحِدٍ مَعَ الَّذِينَ
يَعْتَبِرُهُمُ الْحَاكِمُ أَعْدَاءَهُ الْأَشْرَارَ . . .

نَعَمْ . . . قَاتَلْتُمْ مَعَهُمْ بِعُنْفٍ . . . تِلْكَ الْفِتَاةُ الْمَرْفُوهَةُ
الْبَسِيطَةُ، تَعَلَّمَتْ كَيْفَ تُقَاتَلُ . . . كَيْفَ تَحْمِلُ
السَّلَاحَ . . . لِتُحَارِبَ جُنُودَ الْحَاكِمِ وَهَمْ يُحَاوِلُونَ
الاعْتِدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَالِاسْتِيْلَاءَ عَلَى أَمْلَاكِهِمْ بِقُوَّةٍ،
مَتَسَلِّحِينَ بِأَمْرِ مِنَ الْحَاكِمِ . . .

رَأَتْ الْمُقَاوِمِينَ وَقَدْ تَعَطَّرَتْ ثِيَابُهُمْ بِلَوْنٍ يُشْبِهُ لَوْنَ
الكَرْزِ ..

تَذَكَّرْتُ يَوْمَ كَانَتْ تَسِيحُ فِي الْوُدْيَانِ وَالسُّهُولِ بَيْنَ
عَنَاقِيدِ الْكَرْزِ .. تَأْكُلُ مَا طَابَ لَهَا مِنْ حَبَّاتِهَا الْوَرْدِيَّةِ
الْمُشْرِقَةِ الْمُتَلَأُلَةِ .. فَيَنْقُطُ الْكَرْزُ عَلَى ثَوْبِهَا مَطْرًا بِلَوْنِهِ
الْأَحْمَرَ الْفَاتِحِ وَالذَّاكِنِ .. حَتَّى يَغْرُقَ ثَوْبُهَا بِلَوْنِ
الكَرْزِ .. كَانِ الْمُقَاوِمُونَ يَبْدُونَ وَكَأَنَّهُمْ فِي يَوْمِ
الْحَصَادِ ..

وَانْتَشَرَتْ أَحْبَارُ الْأَمِيرَةِ الْمُقَاوِمَةِ سَاطِعَةً مِثْلَ النَّارِ
فِي الْهَشِيمِ ..

«ابْنَةُ الْحَاكِمِ تَقَاتَلُ أَبَاهَا مِنْ أَجْلِ الشَّعْبِ» ..
ازدادت مشاعرُ العزَّةِ والكرامةِ التهاباً واشتعالاً ...
شعرَ الشعبُ بقوةَ هائلةٍ تتفجَّرُ من كُلِّ مَكَانٍ
وتنبعثُ من دَاخِلِهِ وتنتشرُ في أنحاءِ البلادِ ..
ثارَ الشعبُ كُلُّهُ .. حَتَّى إِنَّ جِزَاءً مِنْ جَيْشِ الْحَاكِمِ

لم يعدْ يَنْفُذُ كُلَّ أَوْامِرِهِ . . فبدأ الْحَاكِمُ يَفْقَدُ قُوَّتَهُ شَيْئاً
فَشَيْئاً . .

انقلبَ الضَّبَّاطُ والعناصرُ الطيِّبُونَ على قائِدِهِمْ
وزوجتِهِ الشَّرِيرةَ . . أمسكوا به وزَجُّوا به في السَّجِنِ ،
وَبَحِثُوا عن زوجتِهِ ، لَكِنَّهُمْ لم يَتِمَكَّنُوا من العثورِ
عَلَيْهَا . . اختفتْ ولم يعدْ لها أيُّ أثرٍ .

اجتمعَ الناسُ يهتفونَ بِحَيَاةِ ابنتِهِ الأَمِيرَةِ . . فالناسُ
تُحِبُّ الهُتافاتِ كَيْفَمَا كانَ الحالُ . طالبوا بِأَنْ تَكُونَ
الْحَاكِمَ المُطْلَقَ مَكَانَ أَبِيهَا . . وكَأَنَّهُمْ لم يَتَّعظُوا من
الويلاتِ الَّتِي جَرَّها عَلَيْهِمْ مِثْلَ هذا الحُكْمِ .
لكنَّ الأَمِيرَةَ رَفَضَتْ ذَلِكَ تَمَاماً . .

لم تُفَكِّرْ أبداً بِأَنْ تَكُونَ أَمْرَةً ناهيةً ، أو أَنْ تَكُونَ
مَكَانَ أَبِيهَا ، أو أَنْ تَنْصَبَ قائِدةً عَلَيْهِمْ ، فَهِيَ لا تَرى
في نَفْسِهَا ذَلِكَ ، كَمَا أنها لا تُحِبُّ القُصُورَ . . فَهِيَ
بِالنُّسْبَةِ لَهَا سجونٌ . .

رَفَضْتُ رِفْضاً قَاطِعاً . . عَرَضُوا عَلَيَّهَا أَنْ تَخْتَارَ
الْحَاكِمَ . . فَرَفَضْتُ . .

عرضوا عليَّها أن تختارَ أحدَ المناصبِ الأساسيّةِ
في الحكمِ . . فَرَفَضْتُ . .

لم يَكُنْ كُلَّ ذَلِكَ هُمُّهَا . . قَالَتْ لَهُمْ: «أريدُ أن
أكونَ فرداً من الشَّعبِ . . لن أطلبَ أيَّ أمرٍ شخصيٍّ . .
باستثناءِ أمرٍ واحدٍ!!» . .

قَالُوا لَهَا إِنْ مَا عَلَيَّهَا إِلَّا أَنْ تَطْلُبَ فَيَسْتَجِيبُوا . .

هي لم تطلبُ في الحَقِيقَةِ . . لَكِنَّهَا صَارَتْ تَرْجُو
النَّاسَ الصَّفْحَ عَنْ أَيْبِهَا . . وَأَنْ يُطْلِقُوهُ مِنَ الْمَعْتَقَلِ
وَيَسْمَحُوا لَهُ بِالرَّحِيلِ بَعِيداً بَعِيداً . . تَوَسَّلَتْ الْأَمِيرَةَ
كَانَتْ أَقْوَى مِنْ كُلِّ جَرَائِمِ أَيْبِهَا . .

النَّاسُ هُنَا طَيِّبُونَ . . لَمْ يَكُنْ لِلانْتِقَامِ مَكَانٌ فِي
تَصَرُّفَاتِهِمْ . . اسْتَجَابَ الْجَمِيعُ عَلَى الْفَوْرِ لَطَلْبِ

الْأَمِيرَةَ . . وَتَرْكُوهُ يُغَادِرُ بِلَادَهُمْ . . لَكِنَّهُ كَانَ أَعَزَلَ
وَحِيداً مَبْنُوداً بَعْدَ أَنْ اخْتَفَتْ زَوْجَتُهُ الشَّرِيرَةُ . .

لَمْ يَتْرِكُوهُ يَذْهَبُ دُونَ أَنْ يَزُودَهُ بِبَعْضِ الْمَالِ
وَالطَّعَامِ، وَسَمَحُوا بِأَنْ يُرَافِقَهُ بَعْضُ أَفْرَادِ حَاشِيَتِهِ
الْمَقْرَبِينَ . .

لَكِنَّهُمْ هُوَ لَآءٍ أَيْضاً مَا أَنْ خَرَجُوا مِنَ الْأَسْرِ حَتَّى
تَخَلَّوْا عَنْهُ هُمْ أَيْضاً، وَتَرْكُوهُ وَحِيداً بَعْدَ أَنْ سَلَبُوا مِنْهُ
مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ مَالٍ وَطَعَامٍ .

وَهَكَذَا رَحَلَ الْحَاكِمُ وَتَفَرَّقَ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ بَعْضِ
الْمُجْرِمِينَ . . وَلَمْ يُعَدَّ يَسْمَعُ النَّاسُ عَنْهُ أَيَّ خَبَرٍ لِفَتْرَةٍ
طَوِيلَةٍ مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ .

أَمَّا الْأَمِيرَةُ فَلَمْ تَسْكُنْ قَصْرًا وَلَا بَيْتًا فَخْمًا - كَمَا
أَعْلَنْتَ مِنْ قَبْلُ - بَلْ عَاشَتْ كَمَا أَرَادَتْ . . مِثْلَ الشَّعْبِ . .

لَمْ يَسْكُنْ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ قَصْرَهَا الْمَرْمَرِيَّ وَلَا قُصُورَ
أَبْنَيْهَا . . النَّاسُ لَا يُحِبُّونَ الْقُصُورَ الْمَبْنِيَّةَ عَلَى

جِرَاحِهِمْ .. هَجَرُوا الْقُصُورَ، وَجَعَلُوهَا ثَكَنَاتٍ لِلْجَيْشِ
وَمَرَائِزَ لِلدَّوْلَةِ ..

وَعَاشَتِ الْأَمِيرَةُ بَعْدَ ذَلِكَ زَمَنًا لَمْ يَنْسَ فِيهِ النَّاسُ
قِصَّتَهَا .. بل كَانَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ مِحْوَرَ حَدِيثِهِمْ دَائِمًا ..

تَزَوَّجَتْ ابْنَ الطَّيِّبِ الَّذِي عَالَجَهَا فِي الْكَهْفِ ..
كَانَتْ الْأَمِيرَةُ تُفَكِّرُ دَائِمًا بِأَيِّهَا .. فَهِيَ تُحِبُّهُ،
وَتُذْرِكُ أَنَّهُ طَيِّبُ الْقَلْبِ لَكِنَّهُ وَقَعَ تَحْتَ تَأْثِيرِ زَوْجَتِهِ
السَّاحِرَةِ الشَّرِيرَةِ ..

لَمْ تَتَحَمَّلِ الْأَمِيرَةُ الْإِبْتِعَادَ عَنِ الْوَالِدِيْنِ بِضَعَّةٍ
أَسَابِيعَ، شَعَرَتْ بِالْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ .. وَانْعَكَسَ ذَلِكَ عَلَى
صِحَّتِهَا .. وَمَرَضَتْ مَرَضًا شَدِيدًا ..

انْشَغَلَ كُلُّ النَّاسِ بِمَرَضِ الْأَمِيرَةِ .. وَقَامَ الْجَمِيعُ
يَدْعُو اللَّهَ لَهَا بِالشِّفَاءِ .. جَاءُوا إِلَيْهَا بِأَحْسَنِ الْأَطْبَاءِ ..
لَكِنَّ أَحَدًا لَمْ يَعْرِفْ سَبَبَ مَرَضِ الْأَمِيرَةِ .. وَكَانَ
مَرَضُهَا يَشْتَدُّ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ..

خافتِ الأَمِيرَةُ أن تموتَ مِنْ دُونَ أن ترى
والدَّها . . فاستأذنتُ من زَوْجِها لكي يَبْحَثَ عن أَيْيَها
حتى تراه قَبْلَ موتِها . .

لم يَكُن أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أن يَرَفُضَ طَلِباً من طَلِبَاتِها،
فهمُ جَمِيعاً يُحِبُّونَها وَيَعْرِفُونَ فَضْلَها، فَكَيْفَ وَهي في
هَذِهِ الحَالَةِ مِنَ الأَلَمِ وَالْمَرَضِ . . فاستجابَ لَهَا
زَوْجُها على الفورِ . . وانتشرَ خَبْرُ أَمْنِيَةِ الأَمِيرَةِ في
أَنْحاءِ البِلادِ . . فَاسْرَعَ الجَمِيعُ لِلْبَحْثِ . .

إِنَّ أَهْلَ البِلادِ هَذِهِ طَيِّبُونَ بِالفِعْلِ، نَسُوا كُلَّ ما فَعَلَهُ
الْحَاكِمُ بِهِمْ، وَلَمْ يَتَوَقَّفُوا عِنْدَ ما فَعَلَ . . بل صاروا
يَتَسَابِقُونَ وَيَتَنَافَسُونَ على مَنْ يَجِدُ الحَاكِمَ المَخْلُوعَ
وَيُحْضِرُهُ لِلْأَمِيرَةِ .

الفرسانُ الشبَابُ الأَشَدَّاءُ كانوا أَكْثَرَ النَّاسِ
حَماسَةً . . قاموا بِعَمَلِيَّةِ بَحْثٍ واسِعَةٍ المَدَى . . ولم
يَناموا لِيَوْمينِ مَتَالِيينِ . . وَكانُوا يَذْهَبُونَ إِمَّا جَماعاتٍ

أو وحداناً.. الجَمِيعُ يتسابقُ ويسرعُ في كُلِّ
الاتِّجاهاتِ.. كَأَنَّهَا مسابِقةُ الفائِزِ فِيهَا يحصلُ على
جائزةٍ عظيمةٍ..

الكلُّ يُريدُ أن يرضيَ الأَمِيرَةَ.. الكلُّ خائفٌ من
موتِها.. يُريدونَ أن تستعيدَ عافيتها وتَبقى بينهم حتى
تشيخَ.. يُريدونَ أن يُفرِّحوا قلبَها.. رُبَمَا لو رأتُ أباها
تُعودُ الحَيَاةَ لتنبضَ بقوةٍ منْ جَدِيدٍ في قلبِها الضعيفِ..

بدلوا جهداً عظيماً أكبرَ بكثيرٍ من البحثِ والجهدِ
الَّذِي قامَ به جنودُ الحَاكِمِ يومَ قاموا بِالْبَحْثِ عن ابنتِهِ
الأَمِيرَةَ نَفْسِهَا يومَ اختَفَتْ، وعثرَ عَلَيَّهَا المَقَاوِمُونَ بَعْدَ
أن سقطتْ عن فرسِها في رحلتِها الهائِمةِ بَيْنَ أشجارِ
الكَرَزِ... فهم مازالوا يذكرونَ القِصَّةَ وَيروونها
بِلا انقطاعٍ..

بل من شِدَّةِ تعلقِهم بِهَا قاموا بِتَسْمِيَةِ السَّاحَةِ
الْكُبْرَى في عاصمةِ الحَكْمِ باسمِ (ساحَةِ الكَرَزِ)، بل

إنهم زرعوا أشجارَ الكرزِ في كُلِّ الطُّرقاتِ، وكتبَ
الشُّعراءُ القصائدَ الكثيرةَ الَّتِي تمدحُ عناقيدَ الكَرزِ..

وأكثرُ مِنْ ذَلِكَ.. كانَ الكَرزُ هُوَ الشُّعارُ الرَّسميُّ
لِلْحاكمِ الجَدِيدِ.. وأوَّلُ شيءٍ فَعَلَهُ هذا الحَاكِمُ بَعْدَ أَنْ
تسلَّمَ الحَكمَ أَنْ مَنَحَ الأَمِيرَةَ الصَّغِيرَةَ وساماً سَمَوَهُ
(وشاحَ الكَرزِ مِنَ الرُّتبةِ العُلَيَا)..

بذلَ الجَمِيعُ جهداً لا يُقارَنُ.. كلُّ فردٍ في
البلاَدِ.. مِنْ حاكِمِها الجَدِيدِ إلى أصغرِ فردٍ فِيهَا..

وبعدَ بحثٍ طويلٍ مضمِنٍ.. وجدتهُ فرقةً مِنْ
المتسلِّقينَ الشُّبانَ الشُّجعانَ في غابةٍ شديدةِ الانحدارِ
خلفَ الجبلِ العالِي.. في مَكَانٍ لا يُمكنُ أَنْ يَصَلَ إِلَيْهِ
أَحَدٌ بِسُهُولَةٍ.

وجدوهُ يَسْكُنُ كهفاً صَغيراً لا يَظْهَرُ مِنْ كَثافةِ
الأشجارِ الَّتِي تحيِّطُ بِمدخلِهِ.. لم يَكُنْ يُريدُ مغادَرةَ
وطنِهِ؛ لِذا استقرَّ في مَكَانٍ قَريبٍ جدًّا لا يَخطُرُ على

بالِ أَحَدٍ، كان شديدَ الهزالِ والضعفِ، مرَّ وقتٌ طويلٌ عَلَيْهِ في هذا المَكَانِ، فأصابَهُ المرضُ هُوَ أَيضاً. . ولم يعدُ يذكرُ كثيراً من تَفَاصِيلِ الماضي بَعْدَ أن تركَهُ زوجتهُ الساحرةُ وتخلَّصَ من سُرورها.

يا لَهَا من ذاكرةٍ مبعثرةٍ تذوبُ يوماً بَعْدَ يومٍ، كما يذوبُ ثلجٌ مَعَ وداعِ فصلِ شتاءٍ. وفجأةً تضاءُ بَعْضُ زوايا مُظلمةٍ، لَكِنَّهُ لم يفلحَ باستعادةِ تَفَاصِيلِهَا، كان يزحفُ نحوهُ زحفاً سريعاً، يقضي على ما تبقي من ذاكرةٍ مهترئةٍ.

وجدوه مُنفصلاً بلا ماضٍ، ينسى لساعاتٍ ورُبَّما لأيامٍ كلَّ الماضي، ولا يتبقي له غيرَ اللحظةِ، وَعِنْدَمَا يَعُودُ إلى نَفْسِهِ يتذكرُ بَعْضَ الأشياءِ الباهتةِ كَسَحَابَةِ صيفٍ تَمُرُّ وتمضي.

وجهُ ابنتِهِ وحده لا يَغيبُ عَنْهُ، في وقتِ ذاكرتهِ وحينَ ضياعِهَا، تبقي مَعَهُ حتى النِّهَايةِ، كأنَّ الصورةَ

محفورة في العمق. مثل ظلّه تَعِيشُ مَعَهُ، مثل نَسَمَاتِ
الرَّيِّعِ، تَشْعَلُ شُمُوعاً حَوْلَهُ كَلَّمَا هَبَطَ لَيْلٌ عَلَى
ذَاكِرَتِهِ، تُمَسِّكُ يَدِيهِ، فَيَعُودُ لِيَجِدَ نَفْسَهُ بَيْنَ كَفَيْهَا .

عِنْدَمَا عَلِمَتْ ابْنَتُهُ أَنَّهُمْ عَثَرُوا عَلَيْهِ فَرِحَتْ . .
أَحْضَرُوهُ إِلَيْهَا مِنْ ذَلِكَ الْكَهْفِ الْمُظْلِمِ .

عِنْدَمَا رَأَتْهُ بَكَتْ مِنَ الْفَرَحِ . . عَادَتْ عَيْنَاهَا تَشْعَانِ
مِنْ جَدِيدٍ . . كَأَنَّهَا وَرَدَةٌ كَانَتْ ذَابِلَةً فَمَا أَنْ سَقِيَتْ
بِالْمَاءِ حَتَّى أَشْرَقَتْ مِنْ جَدِيدٍ . . حَضَنْتُهُ بِكُلِّ
ضَعْفِهَا . . أَحَسَّتْ بِحَاجَتِهِ إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ اِحْتِيَاجِهَا
إِلَيْهِ . . أَدْرَكَتْ أَنَّهَا لَا بُدَّ أَنْ تَقْوَى لِتُرْعَاهُ وَتَعْتَنِي بِهِ . .

حَدَّثْتُهُ وَحَدَّثَهَا . . كَانَ يَسْرُحُ فِي خَيَالِهِ بَعِيداً فَلَا
تَدْرِي بِمَاذَا يُفَكِّرُ؟!!

سَأَلَتْهُ :

«أين ذهبت؟» .

أجابها :



«لا أَدْرِي .. لا أَدْرِي .. كَيْفَ أَذْهَبُ وَأَنْتِ
تُمْسِكِينَ بِي بِكُلِّ هَذِهِ الْقُوَّةِ؟ أَعْرِفُ نَفْسِي، فَأَنَا خَبِيرٌ
مَتَمَرِّسٌ، أَفَهُمُ مَا مَعْنَى أَنْ يَصَابَ الْإِنْسَانُ بِالظُّلْمِ،
خُصُوصاً أَنِي لَسْتُ هَرَمًا إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، لَكِنَّ صَدْمَتِي
تَلَّتَهُمْ ذَاكَرْتِي الضَّعِيفَةَ بِشْرَاهَةِ وَشِرَاسَةِ بِالْغَةِ، كَمَا
تَلْتَهُمْ دُودَةُ نَهْمَةِ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ .. لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا
وَلَا نَفْعًا، وَقَدْ أَضْرَرْتُ كَمَا يَبْدُو بِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ».

الأطباءُ أَخْبَرُوهَا أَنَّ عِلاجَهُ صَعْبٌ وَلَكِنَّهُ لَيْسَ
مُسْتَحِيلًا ..

هِيَ تَقُولُ أَيضًا أَنَّ لَا مُسْتَحِيلَ مَعَ الْحَيَاةِ.

اسْتَعَادَتْ عَافِيَتَهَا بِسُرْعَةٍ مَذْهَلَةٍ .. عَادَتْ تِلْكَ
الْأَمِيرَةُ النُّضْرَةُ .. غَمَرَتْ السَّعَادَةُ قُلُوبَ النَّاسِ جَمِيعًا
فَرِحِينَ لِأَنَّهَمْ تَمَكَّنُوا مِنْ إِنْقَازِ الْأَمِيرَةِ ..

أَمَّا الْأَمِيرَةُ فَقَدْ كَانَتْ سَعِيدَةً بِأَبِيهَا .. اخْتَارَتْ أَنْ
تَكُونَ لَهُ مَرْمُوضَةً خَاصَّةً.

وَهَلْ هُنَالِكَ أَجْمَلُ مِنْ أَنْ تَكُونَ الْبِنْتُ مَمْرُضَةً
لَأَيُّهَا؟!

كَانَتْ تَمُرُّ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ لَا يَذْكُرُ فِيهَا نَفْسَهُ،
فَتَغْنِي لَهُ أَغْنِيَاتٍ طِفْولِيَّةً سَاحِرَةً، لَيْسَتْ كَسِحْرِ الْمَرَأَةِ
الشَّرِيْرَةِ.. هَذَا سِحْرٌ مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ..

يَسْتَيْقِظُ حِينًا مِنْ غَيْبَتِهِ عَلَى صَوْتِهَا الرَّقْرَاقِ، فَتَنْشُدُ
لَهُ كَمَا تَنْشُدُ أُمَّ لَابِنَهَا الرَّضِيعِ، تَرْجُو نَوْمَهُ.

مَا أَطْيَبَ قَلْبَهَا، هَلْ كَانَ مَعَهَا كَمَا هِيَ مَعَهُ الْآنَ؟

بَاتَ لَا يَعْلَمُ عَنْ مَاضِيهِ إِلَّا الْيَسِيرَ الْيَسِيرَ، لَكِنْ
ذَاكِرَتُهُ الضَّعِيفَةَ نَشِطَتْ عَلَى خَيْرٍ مَا فِيهَا.. وَلَمْ تَنْشِطْ
عَلَى الشَّرِّ الَّذِي كَانَ فِيهِ.. وَكَأَنَّهَا حَكَايَةُ زَوْجَتِهِ
الشَّرِيْرَةِ امَّحَتْ بِشَكْلِ شَبهِ كَامِلٍ مِنْ ذَاكِرَتِهِ، وَهَذَا
الْجِزءُ مِنْ حَيَاتِهِ خُصُوصًا أَطْبَقَ عَلَيْهِ ظِلَامٌ لَيْلٍ بِهِيمٍ،
فَلَا يَرَى مِنْ خِلَالِهِ كَثِيرًا مِنَ الذِّكْرِيَاتِ.

يَتَحَدَّثُ أَحْيَانًا فِي لَحَظَاتٍ وَعِي: «لَا أَذْرِي تَمَامًا

ما الَّذِي جَرَى مَعِي، أَرَى خَيَالَاتٍ مِنْ ذِكْرِيَاتٍ
 مُؤَلِّمَةٍ . . أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مُجَرَّدَ تَهَيُّوَاتٍ غَيْرِ حَقِيقِيَّةٍ . .
 كَمَا أَحْجَلُّ مِنْ هَذِهِ الذَّاكِرَةِ الصِّدِّيقَةِ. أَشْعُرُ أَنَّ ذَاكِرَتِي
 مِثْلَ ذَاكِرَةِ طِفْلِ . . بَلْ أَشْعُرُ أَنَّ طِفُولَتِي تَزْدَادُ طِفُولَةً،
 وَأَنَّهَا تُوَلِّدُ مِنْ جَدِيدٍ» . .

جَمَالُ النَّفْسِ يَغْلِبُ جَمَالَ الشَّكْلِ، وَأَنَاقَةُ الدَّاخِلِ
 عِنْوَانٌ وَسِرُّ التَّفَوُّقِ عَلَى أَنَاقَةِ الْهِنْدَامِ، كَمَا أَنَّ طَهَارَةَ
 اللِّسَانِ وَنِظَافَةَ الْقَلْبِ وَالْيَدَيْنِ أَرْقَى مِنْ نِظَافَةِ الْمَكَانِ.
 وَالْأَرْتِقَاءُ إِلَى الْمَعَالِي لَا يَكُونُ بِالْأَمَانِيِّ . . وَالْعُلَا
 لَيْسَ بِمَنْصِبٍ وَلَا بِجَاهٍ أَوْ بِمَالٍ . .

فَكَمْ مِنْ فَقِيرٍ نُقِشَ اسْمُهُ فِي سِجْلِ التَّارِيخِ بِحُرُوفٍ
 بَهِيَّةٍ . . وَكَمْ مِنْ غَنِيِّ عَابِرٍ لَمْ يَلْحَقْ بِصَاحِبِهِ غَيْرَ الْأَذَى
 الْبَاهِرِ . .

وَالكُتُبُ تَحْكِي عَنْ أَشْخَاصٍ لَمْ يَنْفَعَهُمْ مَنْصِبٌ
 وَلَا جَاهٌ . .

ومع علوِّ مكانةِ العِلْمِ، فإنَّ العِلْمَ نَفْسَهُ قَدْ يَنْعَكِسُ
 أحياناً ضَرراً على صاحِبِهِ وعلى النَّاسِ من حَوْلِهِ،
 ورُبَّمَا على الدُّنْيَا في عَصْرِهِ وَغَيْرِ عَصْرِهِ، فَكَمْ مِنْ
 عالمٍ لم يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ، بل اسْتخدمَ ما آتاهُ اللهُ مِنْ عِلْمٍ
 لِيُضِرَّ بِهِ الآخِرِينَ . . وَيُغَيِّرَ الحَقَائِقَ، وَيَزورَ الوَقَائِعَ .
 وَيَهْدِمُ ولا يَبْنِي .

لِذَا فَإِنَّ جَمَالَ النَّفْسِ يَعلو ولا شيءٌ يَعلو عَليهِ .
 فَهَذَا الجَمالُ يَنْعَكِسُ على كُلِّ جَمالٍ أو قُبْحٍ في
 الدُّنْيَا . . فلا العِلْمُ ولا المَالُ ولا المَنْصِبُ يُمكنُ أَنْ
 يَمْنَحُوا النَّاسَ جَمالاً بَغيرِ جَمالٍ يَخْرُجُ مِنَ الدَّاخِلِ .
 فَالجِرْصُ على أَنْ تَجْميلَ النَّفْسِ وتَزَيُّنَها مِنَ الدَّاخِلِ . .
 يُبْدي الجَمالَ الحَقِيقِيَّ الَّذِي يَأْتِي عَفْواً، طَوْعاً أو
 غَضَباً، لَكِنَّ المُهَمَّ أَنَّهُ يَأْتِي بِصورَتِهِ النَّاصِعَةِ وبِلا
 تَكْلُفٍ .

وانشغلت الأُميرَةُ الصَّغِيرَةُ بَعْدَ ذَلِكَ بِكِتابَةِ القِصَصِ

مِنْ جَدِيدٍ . . وَتَذَكَّرْتُ قِصَّتَهَا الَّتِي كَتَبْتُهَا وَلَمْ
تُكْمَلْهَا . .

صَارَتْ تَحْكِي لِأَبْنِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ قِصَّةً مِنْ
تَأْلِيفِهَا . .

وَعَادَتِ الْأَمِيرَةُ إِلَى قِصَّتِهَا الْقَدِيمَةِ . . إِلَى قِصَّةِ
الْفَتِيَانِ الَّذِينَ كَانُوا يُرِيدُونَ التَّحَرُّرَ مِنْ بِلَدَتِهِمْ الْغَرِيبَةِ
الَّتِي لَا تَعْرِفُ نِظَامًا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ . . تَذَكَّرْتُ أَنَّهَا
لَمْ تَكْتُبْ لَهَا خَاتِمَةً . .

كَأَنَّهَا لَا تُحِبُّ خَوَاتِيمَ الْقِصَصِ . .

هِيَ تُرِيدُ قِصَصًا بِلا نِهَايَاتٍ . . قِصَصًا تُرَوَى
وَتَسْتَمِرُّ بِلا تَوَقُّفٍ . . بِلا حُجُبٍ وَلَا سِتَائِرٍ تُخْبِرُ بِأَنَّهَا
انْتَهَتْ . . فَتَظَلُّ «تُرَوَى» بِالْأَلْسُنِ وَ«تُرَوَى» بِالْخِيَالِ كَمَا
يُرَوَى الْمَاءُ النَّبَاتِ الطَّيِّبِ فَيَنْمُو وَيَكْبُرُ فِي الْأَحْلَامِ كَمَا
فِي الْوَاقِعِ . .

عَادَتْ إِلَى قَنَادِيلِ الْأَمَلِ . .

تُطَلُّ عَلَيْهَا مِنْ «نَافِذَةِ الْفَرَحِ» .. إِلَى «عَنَاقِيدِ
 الْكَرَزِ» الَّتِي تُشْرِقُ حَبَّاتُهَا بِسَخَاءٍ وَبَهَاءٍ، فَتَتَدَلَّى
 أَغْصَانُهَا بِتَوَاضُعٍ وَخِيَلَاءٍ .. تُبَاهِي الطَّبِيعَةَ الْجَمِيلَةَ
 بِلَوْنِهَا اللَّمَّاعِ الَّذِي يُشْبَهُ دَمَ الْأَحْرَارِ بِرَوْنِقِهِ الْأَخْضَادِ.
 تَذَكَّرْتُ كَيْفَ عَادَتِ الْحُرِّيَّةُ شَمْسًا تُشْرِقُ كُلَّ يَوْمٍ
 فِي الرَّبِيعِ وَغَيْرِ الرَّبِيعِ .. فِي كُلِّ الْفُصُولِ
 وَالْمُنَاسَبَاتِ .. وَطَعْمُ الْحُرِّيَّةِ لَهُ طَعْمٌ فَرِيدٌ لَا يَتَغَيَّرُ ..
 وَلَا يَكُونُ لَذِيذًا إِلَّا بِلَوْنِ وَطَعْمِ الْكَرَزِ ..
 النَّهَايَةَ





المحتوى

- 5 المَشْهُدُ الْأَوَّلُ: قِصَصُ الْخَيَالِ حَقِيقَةً
- 13 المَشْهُدُ الثَّانِي: كَلَامٌ بَعِيدٌ عَنِ الْفَهْمِ
- 25 المَشْهُدُ الثَّلَاثُ: هَيْئَةُ بَشَرٍ وَأَحْلَامُ ذَنْبٍ
- 39 المَشْهُدُ الرَّابِعُ: أَمِيرَةُ الْحِكَايَاتِ وَالْفَرَاشَاتِ
- 57 المَشْهُدُ الْخَامِسُ: الْبُسْتَانِيُّ الْأَصَمُّ الْأَبْكَمُ
- 68 المَشْهُدُ السَّادِسُ: هُوَايَتِي هُوَايَتِي
- 83 المَشْهُدُ السَّابِعُ: نَهَارٌ بِلَا شَمْسٍ وَلَيْلٌ بِلَا قَمَرٍ
- 99 المَشْهُدُ الثَّامِنُ: قِصْرٌ مِنَ الْأَحْلَامِ
- 110 المَشْهُدُ التَّاسِعُ: الْحُرِّيَّةُ لَا تَعْرِفُ الْإِسْتِسْلَامَ
- 117 المَشْهُدُ الْعَاشِرُ: قَوَانِينُ ظَالِمَةٌ مُظْلِمَةٌ
- 127 المَشْهُدُ الْحَادِي عَشَرَ: مَجْمُوعَاتُ الْمَقَاوِمَةِ
- 136 المَشْهُدُ الثَّانِي عَشَرَ: سِجْنٌ لَا خَلَاصَ مِنْهُ

- 144 الْمَشْهُدُ الثَّالِثُ عَشَرَ: سُقُوطُ الْفَرَسِ
- 154 الْمَشْهُدُ الرَّابِعُ عَشَرَ: الْأَمِيرَةُ الْجَرِيحَةُ
- 162 الْمَشْهُدُ الْخَامِسُ عَشَرَ: الْأَمِيرَةُ تَعُودُ إِلَى قَصْرِهَا ..
- 174 الْمَشْهُدُ السَّادِسُ عَشَرَ وَالْأَخِيرُ: نِهَائَةُ الظَّالِمِ
- 191 المحتوى

